الوجهة الخامسة

- بيان القبائل العربية الساكنة فى الأقطار الحجازية.
- فى بيان قبيلتى حويطات وجهينة.
- فى ذكر عربان قبائل نخاولة وبنى حرب.
- فى تعريف قبائل مطير وبنى سليم وبنى عتيبة وقريش وهذيل وثقيف وبنى عدوان.
- فى ذكر القبائل العربية التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفدة.
- وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءاً من تهامة الحجاز.
- فى تعريف اليمن وملحقاته والقبائل المستقرة فى هذه الأماكن.

فى بيان القبائل العربية الساكنة
فى الأقطار الحجازية

إخطار:

للقبائل العربية التى استوطنت فى جزيرة العرب شعب كثيرة. كما تسعى أفراد كل أمة من الأمم بكل قوتها للإبقاء على شرف أمتهم وعرضها ويحرصون بدافع وطنيتهم على المحافظة على قوة عصبيتها وكمالها ويبذلون فى سبيل ذلك كل غال ورخيص، كذلك تعمل القبائل العربية بكل جهدها لتعلو بحقوقها الوطنية والقومية.

ولما كانت لكل واحدة من القبائل العربانية منازل محدودة ومواقع معينة، لذلك سنذكر فى هذا الفصل وصوره وصور الفصول الأخرى أحوال القبائل العربية التى تستحق الذكر.

هذه القبائل التى تستوطن الأقاليم الستة لجزيرة العرب، كما سنذكر منازلها المحدودة والقوانين والعادات المرعية فى الأحكام بينها بإيجاز إن شاء الله.

بنو هاشم:

يطلق اسم بنو هاشم على الأشراف والسادات الذين تسلسلوا من أصلاب الإمامين الحسن والحسين «رضى الله عنهما» إن نفوذ أفراد القبائل التى تنتسب إليها الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام نافذ وجار على جماعات سائر القبائل، وإن حصر إمارة مكة المكرمة الجليلة عليهم لدليل يؤيد صحة هذا الادعاء.

توضيح:

يقال لأولاد وأحفاد سبطى الرسول المكرمين «رضى الله عنهما» أشراف وسادة.

وإن كان بعض المؤرخين قد ذهبوا إلى إطلاق لقب «شريف» على أولاد الإمام الحسن رضى الله عنه، وعلى أولاد الحسين رضى الله عنه «سادات»، إلا أن فى هذا التعريف والادعاء خطأ تاريخى.

وإن كان يطلق على أولاد الإمام الحسن «أشراف» فهذا التعبير حدث فى العصور الأخيرة، وبناء على ما فُصل فى بحث طبقات الأشراف أنه حدث فى عهد «قتادة بن إدريس» أن بعض أولاد الحسين بن على قاموا بالإمارة سواء أكانت فى المدينة المنورة أو مكة المكرمة، وأن الشرافة خاصة بأولاد الحسن بن على «رضى الله عنهما» الذين قاموا بتولى الإمارة، فلا يصح حصر «الشرافة» فى الحسن بن على رضى الله عنهما.

كانت الشرافة لعامة أبناء هاشم بن عبد مناف ولكن السيادة مع الشرافة كانت منحصرة فى أولاد السبطين المكرمين؛ حتى إن بعض كبار المحدثين وفحول المفسرين وأعلام مؤرخى الأسلاف كانوا يقولون عن ذكر نسب أحفاد السبطين «السيد الشريف الحسن والسيد الشريف الحسين»، ولكن عندما يريدون أن يعرفوا أحد من بنى هاشم كانوا يقولون «الشريف العباسى» والشريف الزينبى والشريف «العقيلى» حتى يميزوهم عن السادات، وليبينوا أن كل شريف ليس بسيد. ولما حصر الملك الأشرف من الملوك المصرية التعمم بالعمامة الخضراء على السادة فقط، فكأنه خص بالشرافة أحفاد السبطين، وذلك باتفاق رجال عصره.

وكان يطلق على أبناء السبطين سواء أكانوا فى الأقطار الحجازية أو الممالك الأخرى إلى زمن «الشريف أبو نمى» من أمراء الحجاز: «السيد الشريف» ولكن ومنذ زمن إمارة الشريف أبى نمى لوحظ أن أولاد الحسن رضى الله عنه فى الحجاز ينادون ويعرفون بأشراف، وأولاد الحسين رضى الله عنه بسادات، وبناء

على هذا أصبح إطلاق الأشراف الحسنية على أولاد الحسن رضى الله عنه والسادات الحسينية لأولاد سيدنا الحسين، عادة لدى سكان الحجاز.

ومع ذلك فأحفاد السبطين المقيمون فى الأقطار الأخرى كالعراق والشام ومصر، مازالوا يدعون كما فى السابق السيد الشريف.

ومازال بعض من أشراف الحسنية يقيمون فى مكة المكرمة وبعضهم فى وادى فاطمة ووادى الليمون، وبعضهم فى موقع يقال له الحسنية خلف جبل عرفات. وبعضهم فى المدينة المنورة، وبعضهم بين ينبع البحر وينبع النخل وفى السويق التى تعتبر أكبر مدينة فى ينبع النخيل.

ويقال لفريق منهم فى جهة ينبع البحر دوى هجاز، ولفريق آخر عيايشة، والذين يسكنون فى مدينة السويق هم الذين ينتسبون لفريق عيايشة، ويروى أن أصل ملك المغرب الحالى من الأشراف الذين يسكنون فى السويق.

كما أن السادات الحسينية تشعبوا لعدة شعب، فشعبة منهم تقيم فى مكة المكرمة، وشعبة منهم فى المدينة المنورة، والشعبة الثالثة فى ينبع البحر، وبعض منهم هاجروا إلى البلاد الأخرى.

يُسمى سادات الحسينية الذين يسكنون فى ينبع البحر زراعية، والذين تشعبوا منهم وسكنوا فى سوارقية يسمون سادات بنى الحسين.

وشعبتان من سادات الحسينية فى اليمن وشعبة منهم فى حضرموت، ويقال لأحد شعبهم فى اليمن سادات مراوعة والأخرى سادات المهادلة وعلى الشعبة التى فى جهات حضرموت سادات العلوية. كما أن فى إقليم الحسا فرقة من سادات الحسنية، ويبلغ عدد أشراف وسادات الحسنية والحسينية عامة فى جزيرة العرب كلها خمسين ألف نسمة.

قبيلة عنزة:

وقبيلة عنزة التى تستوطن فى شمال جزيرة العرب وخاصة الأقطار الحجازية وتعيش حياة بدوية تنقسم إلى أربع قبائل كبيرة تعرف بالأسماء الآتية:-

١- أولاد على.
٢- الحسنة.
٣- جلاس.
٤- بَشَر.

ويقيم أولاد على على طريق الحج الذى يمتد من قلعة الزرقاء إلى القرب من قلعة خيبر. وينقسم هؤلاء أيضًا إلى قبائل المشادقة، مشطا حمامدة جدالمة طلوح وتتشعب من قبيلة مشادقة قبائل طيار، ومنزقان، لحوين، وتتشعب من قبيلة (مشطا) أيضًا قبائل العواض، والطيور، والعطفان، والمقيل.

وقبيلة حمامدة قبيلة واحدة، ويسكن أفراد هذه القبيلة فى أطراف معان.

وتتشعب من قبيلة جدالمة قبيلتا القربنات والطوزشات.

وقبيلة طلوح قبيلة واحدة. وأغلب أفراد هذه القبيلة يسكنون على طريق الحج، وبما أنهم يحرسون أموال وأرواح الحجاج فلهم أجورهم وعطاياهم وخلعهم من الصرة السلطانية.

وقد انقسمت قبيلة الحسنة إلى قبائل متعددة، ولما كانت جميع هذه القبائل اختارت الإقامة فى الصحارى التى تقع بين الشام وحمص وحلب وبغداد فلا حاجة هنا للحديث عن أحوالهم وتفصيلها.

وتقسمت قبيلة جلاس إلى قبيلتى الروالة والمخلف، وتشعبت من قبيلة المخلف قبائل عبد الله وفرسة وبدور وسوالمة.

ومن الزوالة تشعبت قبائل قنعيسان، ودغمة، والفرلفة، ونصير.

وتنزل قبيلة جلاس عامة بين الصحراء التى فى جهة ناحورا، وفى جهة جوف من جبل شمر، وخاصة فى الأماكن الواقعة بين دجلة والفرات، وتنزل أحيانًا بجانب قلعة خيبر.

ولما نأتى إلى قبيلة بشر نجد أنها قد تفرعت منها قبيلتا جد، وسلقا، ومن قبيلة جد تفرعت قبيلتان فدعات وسبعة، وعربان قبيلة (سلقا) يقيمون فى منطقة الحسا.

ولقبيلة سلقا شعب وفيرة وأفرع متعددة، ولكن أهمها قبائل «حائط وحويط» المقيمتان بالقرب من جبل شمر، وقبيلة أولاد سليمان المقيمة بجوار خيبر.

وأفراد قبيلة عنزة كثيرة وشهرتها ذائعة. وأكثر أفراد هذه القبيلة يمضون الصيف بجوار ولاية سوريا، كما يمضون موسم الشتاء متنقلين فى شمال جزيرة العرب وفى الصحارى الواقعة بين الشام وحمص وحلب وبغداد، وفى الأراضى المتسعة الأخرى. ويبلغ عددهم من حيث المجموع ثلاثمائة وخمسين ألفًا.

الصورة الثانية

فى بيان قبيلتى حويطات وجهينة

يقيم أفراد قبيلة حويطات فى سواحل البحر الأحمر الشرقية التى تمتد من قلعة عقبة وقلعة إزلم إلى السويس. فى حالة تنقل ولما كانوا يحصلون حاجاتهم من الملبوسات الضرورية من مصر فعلاقتهم مع مصر، والأماكن التى تسكنها قليلة الإنبات وأراضيها مجدبة، وعندما تقل الأمطار وتجوع حيواناتهم فى المراعى يذهبون إلى جهات عنزة.

وإن كانت قد تفرعت من القبيلة المذكورة اثنتا عشرة قبيلة ولكن أكثرها أفراد الجازاى، والرياضات.

وقبيلة بنى عطية المقيمة فى طريق موكب حج مصر الواقع فى طريق الحسما فرع من فروع قبيلة حويطات.

وقبيلة عمران قبيلة مهمة تفرعت من قبيلة (حويطات) وتسكن حيث تسكن حويطات. وبما أن قبيلتى دبور، وبدول متفقتان مع قبيلتى حويطات وعمران بجوار قلعة عقبة فهما مستقرتان وساكنتان فى مواقعهما.

وإن كانت قبيلة سبايحة أيضًا ساكنة فى هذه الأماكن إلا أن قبيلتى تباها وترابين مستوطنتان فى أماكن قريبة من غزة، كما أن قبيلة (ويلى) ساكنة ابتداء من المكان المعروف بـ (فقير) والأراضى التى تمتد إلى ميناء الوجة[1] وفى وادى حمص وأفراد قبيلة سبايحة يتنقلون من هذا الميناء وحوالى هذا الوادى وفى الأماكن القريبة من قلعة الإزلم.

(١) كان الحجر الصحى يقام فى هذا الميناء للحجاج المصريين.

ويبلغ عدد أفراد القبائل التى تسكن فى هذه المواقع أى فى الجهة الشمالية القريبة من الأقطار الحجازية وفى الأراضى التى تمتد من قلعة الأزلم، والعقبة وميناء الوجه إلى السويس مائة ألف نسمة.

وهناك قبيلة أخرى مقيمة فى جبل حساين الواقع على شاطئ البحر الأحمر، وعلى ثلاث مراحل من الطرف الشمالى لينبع البحر، ويشتغل أكثر أفراد هذه القبيلة بالملاحة وأمور خاصة بالسفن، ويروى أن تلك القبيلة متشعبة من قبيلة بنى عيسى المشهورة التى تسكن بلاد اليمن الواسعة.

قبيلة جهينة:

تسكن هذه القبيلة والجماعات المنسوبة لها فى شاطى البحر من جبل حساين إلى ينبع البحر، وفى المواقع التى من جبل حساين إلى ينبع هدية وبجوار قلعة شجرة، وبئر فقير وفى الوادى المسمى عباس وفى ينبع البحر وجبل رضوى الواقع على شرقه بخمس ساعات، ولما كانت كلها قبائل رحل فهى تسكن حيثما شاءت ووقتما تشاء.

وتنقسم تلك القبيلة إلى قسمين واللذين يعرفان بـ أولاد مالك، وأولاد موسى أشراف.

وقد تشعب من قبيلة البراهمة قبائل صبحة، عيايشة، وعروة، وكومة، وسنبنات، وحصينات، وأساورة، ومسادى، ورفاعة، وبنى كلب، وحيادلة، حمدة، ومواليد وقد تفرعت من كل واحدة من هذه البطون عدة خمسات وبطون أخر سواء أكانت تلك القبائل المذكورة أما تفرعت منها من البطون فى القسم الذى يسمى أولاد مالك.

إيضاح:

يقال خمسة لوالد الشخص وعمه وخاله ومن ولد من هذين من الذكور وكلهم خمسة أشخاص. إذا ما قتل أحد من العربان شخصًا آخر يقتل أحد من

خمسة المقتول القاتل، وبهذا يأخذ ثأره. وتعبير خمسة عبارة عما تم شرحه، وقد تفرعت الخمسة فى القبيلة واختلطت من جميع الجهات بالأولاد والأنسال، وأصبحت قبيلة مستقلة للفظ خمسة كناية عن ذلك.

والقسم الثانى الذى يتكون من قبيلة جهينة أولاد موسى:

وقد تفرعت أيضًا إلى قبائل عديدة، كالقبائل المشهورة التى تشعبت من قبيلة براهمة وهى موالى، ومراوين، علاوين، وزيبان، وعوامرة، ونزة، وسمايحة، وما تفرع من كل واحدة منها من الخمسات تشكل القسم الثانى من قبيلة جهينة.

وتبلغ قبيلة جهينة بكافة أفرعها من حيث المجموع خمسين ألف نسمة تقريبًا. ويشتغل بعض منهم بالملاحة وتسيير السفن وصيد السمك، وبعض منهم يعمل بالفلاحة والزراعة ويتعيش من ورائها وتسكن القرى والمدن، ولكن القسم الأعظم منهم يمضون حياتهم فى الترحل وتحت الخيم.

قبيلة هيتم فرع من قبيلة بنى عبس:

الحمية والسياسة العربانية:

الحمية والشجاعة الفطرية لا حد لها بين العربان. وحدث أن قامت حرب بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى[1] مجاورة لهم منذ خمسمائة عام، وكانت حرب شديدة قاسية نتجت عنها خسائر كثيرة فى الأرواح والأموال، لذا اجتمع ثلاثة وثلاثون من شيوخ القبائل الأخرى حتى ينهوا هذه الحرب، ويضعوا حدًا لأوزارها بالصلح بين القبيلتين وفعلاً حسبوا ديات القتلى وفق القوانين القبلية، وأرضوا الطرفين وعقدوا الصلح بينهما. ولكن بعد فترة قام شجعان قبيلة هيتم بالإغارة على أعدائهم وقتلوا من وقع فى أيديهم من رجال ونساء وأطفال ولم يبقوا على أحد، وكانت هذه الجريمة فى غاية السوء منافية للصفات الإنسانية، ومناقضة للقوانين الجارية بين البدو، وبناء على ذلك أقسم الشيوخ الذين سبق ذكرهم على قتل أفراد القبيلة المعتدية كلهم بحيث لا يبقون لهم اسما ولا ذكرا، وتعاهدوا على ذلك.

(١) يقصد قبيلتى عبس وذبيان.

ولكن فيما بعد، لسبب ما تراجعوا عن عقابهم بهذه الصورة، وقرروا تأديبهم ومجازاتهم بصورة أخرى، وذلك بأن يكونوا مهانين ومحقرين من قبل القبائل الأخرى، وألا تضمهم أرض واحدة معها، وألا يختلطوا بالقبائل الأخرى بالزواج وغيره، وحتى إذا سكنوا فى أرض قبيلة من القبائل عليهم أن يدفعوا لهم مقدارًا من المال باسم الزكاة، وأن يبدل اسم قبيلة عبس باسم هيتم الذى يعنى الذليل الحقير. ومن ذلك الوقت تراهم أذلاء ومهانين عند القبائل الأخرى وهم فعلاً فقراء.

وخلاصة القول أن القبائل الأخرى تنظر إليهم كنظرهم إلى الغجر.

والقبائل التى توجد فى الأقطار الحجازية من بطون بنى هيتم هى (مهيمزان، ذوو رشيد، ذوو براك، ونوامسة، شرارات، وهتمان.

وتسكن قبيلة مهيمزان بين الحناكية القريبة من المدينة المنورة وكريزية، وقبيلة ذوى رشيد فى قرى حائط وحويط، وأبو حبان، وصحراء وادى رُما وقبيلة ذوى براك فى الصحارى الممتدة من جبل سراة إلى جبل شمر، وقبيلتا النوامسة وشرارات تسكن حول قبائل عنزة وبعضها فى أراضى جهينة، والقبيلة الضخمة التى تسمى هتمان تسكن حوالى مكة المكرمة وفى داخل البلاد اليمنية.

فى ذكر عربان قبائل نخاولة وبنى حرب

قبيلة نخاولة وبنى حرب: قبيلة نخاولة قبيلة محتقرة فى غاية الاحتقار بين أهالى الحرمين.

فمن المعلوم أن العساكر الذين أرسلوا من قبل يزيد بن معاوية بنية ضبط المدينة المنورة والاستيلاء عليها نهبوا أموال أهالى المدينة المنورة الكرام وأمتعتهم وهتكوا أعراض نسائها وشرفهن، ثم انصرفوا ناحية الشام! عندئذ عُزلت النساء اللاتى حبلن من هؤلاء الملاعين والأولاد الذين ولدوا نتيجة السفاح وأسند إليهم لما كبروا وظائف العناية بالحدائق التى حول المدينة المنورة.

وتكونت قبيلة نخاولة من سلالة أولاد الزنا الذين اشتغلوا بمراعاة الحدائق التى حول المدينة وأطلق على أفراد تلك القبيلة فيما بعد نخاولة.

ومنذ ذلك الوقت لا يتزاوج أهالى المدينة بأفراد هذه القبيلة ولا يختلطوا بهم. ولما كان هؤلاء رافضة المذهب فإنه لا توجد بين أسماء رجالهم ونسائهم أسماء أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة. وحمقى الشام الذين ينتسبون لهذه القبيلة، يختلطون ويتزاورون دائمًا مع مَنْ هم على مذاهبهم. ويتزاوجون فيما بينهم بزواج المتعة.

وقد وصل عدد النخاولة الذين يسكنون فى الحدائق المذكورة وفى الغرف الأرضية التى تسمى حوض إلى الآن اثنى عشر ألفا.

وكل الشيعة والروافض الذين يزورون المدينة المنورة فى زماننا ينزلون فى

منازل النخاولة عامة. ويقيم أبناء النخاولة فى الحدائق التى خارج المدينة وفى الأماكن التى تسمى حوش النخاولة، وبناء عليه لا يوجد فى داخل المدينة المنورة فرد من جنس النخاولة.

قبيلة حرب:

انقسمت قبيلة حرب إلى قبيلتين كبيرتين وهما بنو سالم وبنو مسروح. كما أن بنى سالم قد انقسموا إلى شعبتين وهما ميمون، ومراوحة.

وتتفرع شعبة بنى سالم الأولى بنى ميمون إلى اثنتى عشرة بطنا واشتهر التسع من هذه البطون بين العرب بأسماء محمادى، ولوعى، رحيلى، حيدرى، عمرى، سريجى، يحيوى، مورعى، قايدى، كما تشعبت من كل واحدة منها الخمسات، والقبائل الثلاثة الباقية هى أحمدى، محمدى، صبحى، وكل واحدة منها انقسمت إلى أربعة أقسام هى حميدى، ضميرى، فضيلى، ذكيرى وتنتمى إلى قبيلة أحمدى، وتنتمى تمم، سعادين، لويلح، وسواعدة إلى قبيلة محمدى. وتنتمى عليانى، لبيدى، فخمى، ومرزوقى إلى قبيلة صبحى كما تفرع من هذه الأقسام خمسات متعددة.

كما أن مراوحة بنى سالم عرفت بأسماء نوامية، وقراف، وظواهرة، وجبول، وحنيطات، وذرعات، وحجلة، ومزينة، ورادادة، وحناينه وهى قبائل صغيرة تكون جماعات ما تعرف بقبيلة حوازم.

وكافة هذه القبائل الصغيرة تتعايش بنقل الحجاج بجمالهم ونقل ذخائر وأمتعة أهل المدينة، وهم عامة أهل طاعة وانقياد.

ويسكن عربان القبائل التى سبق ذكرها محمدى فى طريق ملف ورولوعى فى قرب خيف الكسا ورحيلى حول بئر الروحاء.

وحيدرى فى ينبع النخل، وعمرى فى مضيق جديدة وأم ديان وسريجى ويحيوى ومورعى وقايدى فى ينبع النخل أيضًا، وأحمدى فى جبل فقرة المشهور لمضيق جديدة، وحواليه وفى الجبال الأخرى القريبة منها رحقان وجعفر تسكنان

القرى، ومحمدى بين المدينة المنورة وشجوة، وصبحى فى بدر والحسينية وما حولهما من جبال.

وفرقة مراوحة القسم الثانى من بنى سالم وهى نوامية، وقراف، وحنيطات، وجبول، وحجلة، ومزينة، ورداده، وحناينة. وهذه تنقسم إلى عشر خمسات، وكل خمسة تنقسم إلى خمسات متعددة، ويطلق على جملتها حوازم، وأفراد هذه الخمسات يسكنون عامة فى المواقع التى سيأتى ذكرها.

وتسكن قبيلة نوامية فى الجهة الجنوبية من الطريق السلطانى وخيف الكسا، وعربان قراف فى قرية حمرة والجبال التى حولها، وفريق من عربان الظواهرة فى حمرة، والفريق الآخر فى نجد، وقبائل حنيطات وجيول، وذرعات فى قرية صفراء وما حولها من الجبال، وعربان حجلة عند أسوار بئر الشريوفى، وعربان مزينة بين الجبال الواقعة بين نجد والمدينة المنورة فى الجهة الشرقية منها، وعربان رداده بين المدينة المنورة وبئر الشريوفى، وبعض من عربان حناينة حول المدينة المنورة وبعضهم فى إقليم نجد.

ولما كان عربان بنى سالم أكثرهم بين المدينة المنورة، وينبع البحر، أقام القسم الثانى من مسروح فى الأماكن التالية: فعربان جرم يسكنون فى قرية مضيق الواقعة على طريق فرعى وطريق غابر، وفرقة من عطور ومَنَاش فى قرية مضيق الواقعة فى طريق الفُرع، والفرقة الأخرى تسكن فى بادية نجد، وعربان بشر يسكنون حول مكة المكرمة، وبجانب حارة عربان معبد بن عبد الله، وعربان بلدية وحُمْرَان حول مكة المكرمة، وبعضهم فى قرية تسمى بلدية والجبال التى حولها، وعربان بدارين وبنى جابر وشعب فى الأماكن التى على الجهة الشرقية من الحناكية وإقليم نجد.

لذا يطلق على الأراضى التى بين البلدتين المباركتين أراضى المسروحية.

وقبيلة بنى حرب قبيلة كبيرة بين القبائل العربية، وخاصة فى الأقطار الحجازية. وإذا ما أحصوا بكل فروعهم يبلغ عدد أفرادهم على أقل تقدير سبعين أو ثمانين ألفا.

فى تعريف قبائل مطير وبنى سليم وبنى عتيبة وقريش وهذيل وثقيف وبنى عدوان

قبيلة مطير:

تشعبت من قبيلة مطير قبائل دويس، وميمونة، وبنى عبد الله، وتفرعت من هذه الشعب خمسات متعددة تسير وتسكن أفراد تلك القبائل وشعبها ابتداء من مضيق حنق على مرحلة واحدة من المدينة المنورة وعلى جانبها الشرقى والأماكن الكائنة بين قرية حازة وقريتى سوارقية وصفينة.

ولما كان أكثر هؤلاء من أهل البداوة فهم يسكنون الخيم ويتجهون حيث يجدون العشب وحيثما ينزل المطر، ناقلين أثقالهم ومواشيهم، وهذه عادة قديمة عندهم. يبلغ عددهم نحو أربعين ألفا.

بنو سليم:

يسكن أفراد قبيلة بنى سليم بين قرية حازة الواقعة على الطريق الشرقى للمدينة المنورة الذى يمتد إلى مكة المكرمة والأماكن الواقعة بين مكة المكرمة، ويقدر عددهم بنحو ألفى نسمة.

وعربان أحمدى الذين يسكنون جبل فقرة على بعد ست ساعات من قرية جديدة التى تقع على يمين الطريق السلطانى، ومضيق جديدة عند الاتجاه إلى مكة المكرمة من المدينة المنورة فرع كبير انفصل عن قبيلة بنى سليم،. ويطلق على عربان أحمد أحامدة أيضًا.

قبيلة عتيبة:

وقبيلة عتيبة قسمان يسمى أحدهما برقا والآخر بريا وتتشعب من هذين القسمين قبائل متعددة وخمسات.

وأهم القبائل والخمسات المتفرعة من برقا وبريا قبائل روسان، وروفة، ومفطة، وشياين، ودعاجين، وعصمة، وجذعان، وحناتيس، وهى ثمانى قبائل ويبلغ عدد أفرادها عشرين ألفًا.

وهناك بعض أفراد القبائل الساكنة فى جوار الطائف والأماكن الواقعة على الطرف الشرقى من الطائف هؤلاء أيضًا من العربان الذين ينتمون إلى بنى سليم وبنى مطير.

قبيلة قريش:

ولا تحتاج قبيلة قريش للشرح والتوضيح والبيان وكانت تشتهر قبل البعثة النبوية بين القبائل العربية بكثرة عددها وقوتها وصولتها، كما هو مسطور فى كتب التواريخ القديمة.

وقد هاجر الجزء الأعظم من أفراد هذه القبيلة مع فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات، ومن بعده إلى المدينة المنورة كما أن بعضا منهم صحبوا الغزوات التى ساقها الخلفاء الراشدون إلى الأقطار الشامية والمصرية والعراقية، وبعد الفتح اختاروا الإقامة فى هذه الأماكن، وسكن بعض منهم فى مكة المكرمة وسائر المواقع، وذابوا فى سكان البلاد التى سكنوا فيها، والذين بقوا منهم الآن لا يتجاوز عددهم ألفى نسمة.

وأفراد تلك القبيلة يسكنون فى بعض المواقع الخاصة حوالى مكة المباركة ووادى الخيف وحواليه، وفى وادى عرفات، وأخشبان وحول هذين الواديين وبين مكة المكرمة وجبالها المتسلسلة.

أشرف القبائل:

وتفضل قبيلة قريش من حيث القوة والمجتمع القبائل الأخرى، كما أن أصالتها من حيث الحسب والنسب معترف به عند الجميع ومسلم بها وأشرف بطونها: بنو هاشم.

والقرشيون من أولاد فهر، وتفرقوا فى زمن كنانة، وقد جلبهم وجمعهم قصى بن كلاب فى ظواهر وبطاح مكة، لذا سموا بقريش وانقسموا إلى قسمين ويطلق على قبائل بنى عبد مناف، وبنى زهرة، وبنى عبد العزى بن قصى، وبنى عبد الدار بن قصى وبنى تيم بن مرة، وبنى سهم وبنى جمح ابنى عمرو بن هصيص بن كعب وبنى عدى بن كعب، وبنى هلال بن مالك بن حبنة بن الحارث بن فهر بن عامر بن لؤى قريش البطاح.

كما يطلق على أولاد بنى معمر بن غالب بن فهرَ وبنى بعيص بن عامر بن لؤى وبنى محارب بن فهر وبنى الحارث بن فهر يطلق عليها قريش الظواهر.

كما أن جماعة أسامه، حارث، سعد، وعوف، من أولاد لؤى بن غالب أيضًا، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يندرجوا فى عداد لا قريش البطاح ولا قريش الظواهر لهجرتهم إلى بلاد أخرى.

قبيلة هذيل:

تسكن قبيلة هذيل فى الجبال التى بين مكة المكرمة وبلدة الطائف الجبال التى تتسم بعلوها ووعورة طرقها ولا سيما حول جبل قرا.

والقبائل الثلاثة التى تدعى بعلويين، وتدوين، وبنى خالد أهم قبائل انفصلت عن قبيلة هذيل، ويبلغ مجموع عدد أفرادها إلى عشرة آلاف نسمة تخمينًا.

قبيلة ثقيف:

تسكن قبيلة ثقيف فى الطائف والقرى التى حواليها، وخاصة بين صحارى الطائف وجبالها وفى قرية بجيلة التى فى جنوب الطائف.

ونصف أهل الطائف ينتمون لهذه القبيلة، وينتمى إلى ثقيف الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اشتهر بظلمه وجبروته، ومختار الكذاب الذى ادعى النبوة فى الجاهلية، كما أن عربان بنى سفيان يتفرعون من قبيلة ثقيف.

وعربان قبائل بنى سعد، وناصرة، وربيعة، وعيلة، وإن كانوا ينتمون من

حيث النسب إلى قبائل أخرى ولكنهم يسكنون فى أماكن خاصة بثقيف ويعيشون متآلفين مع أفراد قبيلة ثقيف. ويصل عدد أفرادهم إلى ما يقرب من خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف نسمة.

ويقيم عربان قبيلة بقوم فى قرى رنية، وبركة العشيرة ويختلطون بأفراد قبيلة ثقيف، ويعيشون متآلفين معهم إلا أنهم لا يعدون من قبيلة بنى ثقيف.

قبيلة عدوان:

كانت قبيلة عدوان وأفرادها يتميزون من حيث الكرم والشجاعة على عربان القبائل الأخرى، واشتهروا بذلك وبهذا اكتسبوا شرف صداقة أشراف مكة المكرمة الكرام وسعدوا بها.

وعندما كانت قبيلة (عدوان) تحمل الشهرة والشرف الذين سبق الحديث عنهما كانت تسكن فى الأراضى الواسعة والجبال والأودية التى بين جدة والطائف، ولما قل عددهم ونقص شرفهم اختاروا السكنى فى الجهة الجنوبية من الطائف. ومجموع عدد أفرادهم يكاد يبلغ ألفى نسمة.

وكانت مرضعة النبى ﷺ حليمة ـ رضى الله عنها ـ تنتمى إلى هذه القبيلة، وبما أن قبيلة سعد كانت تحوى تاج المُخدّرات وعمدة الصالحات فقد كان أشراف مكة الكرام يودعون أولادهم إلى وقت قريب فى أحضان مرضعات هذه القبيلة، لإرضاعهم وتربيتهم.

قبيلتا ابن الحارث وبنى سعيد:

يسكن أفراد قبيلة ابن الحارث الذين يبلغ عددهم ألفى نسمة فى الجهة الشرقية من الطائف، كما أن بنى سعيد الذين يبلغ عدد نفوسهم ثلاثة آلاف فى الجهة الجنوبية من الطائف وأفراد هاتين القبيلتين أيضًا يختلطون مع بنى ثقيف متآلفين متآنسين.

فى ذكر القبائل العربية التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفذة وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءًا من تهامة الحجاز

بنو لحيـان:

يقيم عربان قبيلة بنى لحيان فى الأماكن الواقعة بين مكة المكرمة وجدة وتقتصر معيشة بعض هؤلاء على ما يحصلون من المبالغ من المسافرين والحجاج الذين يسلكون هذا الطريق ويتعيش الآخرون كبقية البدو من تربية الحيوانات ويبلغ عددهم ألف وخمسمائة شخص.

بنو جحادلة:

يسكن عربان قبيلة جحادلة فى الجهة الجنوبية من مساكن قبيلة لحيان، وخاصة فى وادى لملم، ويتكسب هؤلاء بنقل المسافرين الذين يذهبون من مكة المكرمة إلى اليمن على ظهور جمالهم ونقل بضائعهم.

وهناك قبيلة بنى فهم غير القبائل المذكورة، وتقيم فى وادى خضر وقبيلة يزيد والتى تقيم فى وادى يزيد، وقبيلتا بجالة وبنو منعان وتسكنان فى وادى حسن، والأسود، والأعور، وبنو سليم فى وادى دوقة وأشراف قبائل ذوى زيد وبنى هلال وبنى عفيف فى عصم. وقبيلتا بنى ناشر وبنى عاصم فى وادى أجية وقبائل بنى عمر وبنى على وبنى زيدان فى وادى قنفذة.

ويبلغ عدد أفراد عامة هذه القبائل عشرة آلاف نسمة تقريبًا، ولما كانت أماكن إقامتهم غير منبتة، يزرع بعض سكانها فى السنين الممطرة الذرة ويجنون محاصيلها كما أن بعضهم يعيشون على صيد الأسماك على ساحل البحر الأحمر.

فى تعريف اليمن وملحقاته والقبائل المستقرة فى هذه الأماكن

اليمـن:

خطة اليمن منطقة كبيرة من جزيرة العرب، تقع فى الطول الشرقى من درجة ثلاث وأربعين إلى درجة خمسة وأربعين. وفى العرض الشمالى فى درجة اثنتى عشرة، وتقع على الطرف الجنوبى الغربى من الجزيرة المذكورة.

ويحيط بها من الجانب الغربى البحر الأحمر وفى الطرف الجنوبى خليج عدن، ويحدها من الشرق حضرموت ومن الشمال الحجاز. ومساحتها الطولية من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية سبعمائة وخمسة وخمسون كيلو متر، ومساحتها العرضية من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية ثلاثمائة وخمسون كيلو متر. ويبلغ عدد سكانها مليونين وخمسمائة ألف نسمة تخمينًا.

وتنقسم جغرافيًا بالإجمال إلى قسمين:

القسم الأول: من الخطة اليمانية الواسعة: الأراضى الواسعة المستوية على ساحل البحر، وتسمى تهامة وتمتد من شاطئ البحر إلى الداخل ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة وهى أراض سهلة مستوية.

والقسم الثانى: الأراضى المقابلة لتهامة وهى أراضى مرتفعة، ويطلق عليها نفس اليمن وهى فوق جبال متسلسلة تسمى جبال سروات وتمتد من الطائف إلى صنعاء.

ويسكن أغلب أهالى الممالك اليمانية فى القرى والمدن وقد تعودوا على أن يكتسبوا قوتهم بالزراعة والتجارة، لذا تجد أن العربان الرحل يقلون بالنسبة للأماكن الأخرى لجزيرة العرب.

التحقت البلاد اليمانية بالممالك العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى طاب ثراه، وقسمت إلى محافظتين تهامة واليمن. ومقر إدارة تهامة كان مدينة زبيد ومقر إدارة اليمن صنعاء.

ولما كانت مدينة زبيد على بعد ثلاث مراحل من البحر فقد تفرق سكانها وأشرفت على الخراب، وأخذت مدينة جديدة تزدهر لأنها على شاطئ البحر فاتخذت مركز إدارة لولاية تهامة.

والمدن التى من جدة إلى عدن وعلى شاطئ البحر من مدن تهامة هى:

ليت:

بلدة ليت على الطرف الشرقى الجنوبى لجدة وعلى بعد تسعين ميلاً منها، وهى مدينة صغيرة قديمة، وإن كانت لها حدائق نخيل ومياه عذبة فى آبارها، إلا أن جوها وخيم بسبب كثرة رياحها التى تثير الغبار حتى يكاد الإنسان لا يفتح عينيه.

وفى نفس المدينة دائرة حكومية وجامع شريف وخمسمائة وخمسون منزلاً وخمسون دكانًا، وفى مرساها الذى يبعد عن المدينة نصف ساعة والتى تبعد عن مكة المكرمة أربع مراحل بسير الجمل حجر صحى ودائرة جمركية.

وسكانها الأصليون ألف نسمة تقريبًا، ولكن بما أنها أقرب مرساة لعربان القبائل التى حولها فكل فرد منهم يأتى بما يريد أن يبيعه من غنم أو سمن[1] والأشياء الأخرى لهذه المدينة، ويشترى ما يحتاج إليه من حاجياته الضرورية، ففى هذه المرساة تتم عمليات استيراد وتصدير لا بأس بها.

وميناء (ليت) مشهور بين موانى البحر الأحمر. فمرساته فى هذه المدينة التى تبعد عنه نصف ساعة فى الجهة الشمالية، كما أن له دائرة جمركية ودائرة الحجر الصحى أيضًا.

لم تكن هاتان الدائرتان ـ إلى وقت قريب ـ مبان من الحجر واللبن بل كانتا كوخين من الأعشاب. وبناء على الإرادة السنية التى صدرت فى خلال عام ألف

وثلاثمائة وخمسة الهجرية بنيت إدارة حكومية كاملة، وجامع ومخبز ومدرسة للصبيان فى شبه الجزيرة الملاصقة والمتاخمة لهذه المدينة، كما حفر خندق عميق يكون طرفاه الجزيرة المذكورة ومتصلان بالبحر من ناحيتين بُنى فوقه برج من الحجارة ذو أربعة أبواب للدفاع لحماية الميناء.

وكان الميناء المذكور قد حفظ وحدد بصخور مرجانية مستديرة الشكل كالقوس، وكان فى وسط هذا الخط مدخل للسفن يستوعب عشر قطع من السفن، وتستطيع الصخور المرجانية أن تحمى السفن من جميع أنواع العواصف التى قد تهب، وكان عمقه مناسبًا وكان هذا الميناء قريبا فى مكان تلتقى فيه منطقتا عسير والحجاز ويسمح بتوسيع دائرة تجارة سكنة هاتين المنطقتين.

لذلك وُزع قدر كبير من الأراضى التى فى جهة اليابسة من الميناء على الأهالى المستوطنين هناك، وكذلك على الذين يرغبون فى الحصول على الأرض من الخارج ولا سيما للموظفين المحليين، وبناء على ذلك بُنيت عشرة منازل وعدة دكاكين، كما أن السلطان أيضًا بنى من جانبه المنزل والدكاكين فأطلق على هذا البلد الجديد اسم معمورة الحميد.

وبما أن موظفى الحكومة نقلوا إلى معمورة الحميد، وأرسل إليها من جدة مدفعان ومجموعة من الجنود النظاميين وطاقم مدفعى وأسكنوا فى البرج المذكور ولا شك فى أن هاتين المدينتين ستنهضان وتشتهران.

قنفـذة:

تقع بلدة قنفذة فى الجنوب الشرقى من مدينة (ليت) المذكورة آنفا وعلى ساحل البحر. كان سكانها الأصليون يتكونون من ألف وخمسمائة نسمة، إلى أن أرسل فى سنة ١٢٨٠ الجيش السلطانى لدفع غائلة خروج أمير عسير محمد بن عائض من باب السعادة، وأخرجوا رأسًا إلى قنفذة واتخذت مركز حركة للجيش لقربها من جبال عسير فجاء إليها من الأطراف والأكناف كثير من الأشخاص، واستوطنوا فيها وبناء على ذلك استمر سكانها فى الزيادة يوما بعد يوم.

اللحيـة:

واللحية مدينة شهيرة على بعد مائة وثلاثين ميلاً فى الجنوب الشرقى من قنفذة وعلى شاطئ البحر الأحمر، وهى مدينة رائجة بالتجارة وميناء مزدحم، وإن كانت تشمل أربعة آلاف منزل ولكن أكثرها من نوع العشش المبنية بسعف النخيل، ويقدر سكانها ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف.

أبو عريش:

تقع مدينة (أبو عريش) على بعد تسعة وثمانين كيلو مترًا من اللحية على الجانب الشمالى منها، وبالقرب من البحر الأحمر ويبلغ سكانها خمسة آلاف نسمة تقريبًا.

الحديدة:

تقع مدينة الحديدة على بعد خمسين ميلاً تقريبًا وفى الطرف الجنوبى الشرقى من (اللحية) ومحصورة بسور فى غاية العمار ولها قلعة مستحكمة.

ولما كانت البلدة المذكورة أكثر مدن اليمن الساحلية رواجًا بالتجارة وازدحاما بالسكان وانتعاشًا، وميناء الشط فقد اتُخذت مقرًا لمتصرف اليمن.

وتمر بهذا الميناء البواخر والسفن الشراعية الآتية من الهند وزنجبار وخليج البصرة إلى جدة للتزود بالمياه والمؤن وإنزال المسافرين فى أكثر الوقت وخاصة فى مواسم الحج، وغير ذلك تحمل المحاصيل المحلية الكثيرة إلى السفن من هذا الميناء ولتجارها علاقات وروابط بأهالى جدة ومصر وحضرموت.

وتخلو بلدة الحديدة من المياه الجارية، لذا يدبر الأهالى أمورهم بمياه ست آبار على بعد نصف ساعة منها.

وإن كانت مياه هذه الآبار مالحة قليلاً مثل ماء البحر، إلا أنها لا تضر الجسم بل تساعد على هضم الطعام.

المخـآ:

تقع مدينة المخا على بعد تسعين ميلاً من الحديدة وعلى شاطئ البحر الأحمر، وقريبة من مضيق باب المندب والمسافة بينها وبين زبيد ثلاث مراحل.

وكانت هذه المدينة مشهورة قديمًا وكانت غاية فى العمار فى الأزمنة السابقة وكانت مدينة تجارية رائجة. وقد بلغ عدد سكانها قبل خمس وعشرين سنة إلى عشرين ألفا، إلا أنهم لم يتحملوا فيما بعد هجمات عربان عسير وغاراتهم وتعدياتهم المتوالية فتشتتوا هنا وهناك.

ولم يبق الآن داخل المدينة غير خمسمائة شخص وبناء على ذلك تحولت تلك المدينة الكبيرة إلى خرائب وأطلال. إلا أنه فى ظل السلطان أمكن القضاء على الأشقياء المذكورين، وأزيلت تعدياتهم وغاراتهم من هناك كليًا. ومن المأمول أن يعود للمدينة عمارها القديم وسكانها.

عـدن:

تقع مدينة عدن فى نهاية جزيرة العرب جنوبًا وبالقرب من مضيق باب المندب من خليج عدن، وعلى بعد مائتين وخمسة وعشرين كيلو متر من مدينة المُخا.

وكانت دولة إنجلترا قد اشترت هذا المكان فى سنة ألف وثمانمائة وتسع وثلاثين ميلادية من أحد مشايخ العربان، وأنشأت هناك قلعة على أنها مخزن. وكان أهالى عدن فى ذلك الوقت ألفى نسمة، ولكنهم ازدادوا قليلاً فقليلاً بالتدريج حتى بلغوا وتجاوزوا عشرين ألفا. وبما أن مضيق باب المندب يقع بين المخا وعدن، تعد مدينة عدن بمثابة مفتاح البحر الأحمر. والمسافة بين مدينة عدن وصنعاء ثلاث مراحل، وقد استوطن عربان (لحج) بين هاتين المدينتين.

وادى كنونة:

يقع وادى كنونة بالقرب من قنفذة عندما تقطع قطعة اليمن من طرفها الشمالى إلى جهتها الجنوبية رأسًا.

وتسكن قبائل بأيعر، وبنى زيد، وبنى حرب، وبنى عبس، وبنى سهيم، فى داخل وادى (كنونة). ويصل عدد أفراد هذه القبائل مجتمعة خمسة آلاف أو ستة آلاف نسمة.

وهناك وادى ويبة وهو ملاصق للوادى المذكور، وتسكن فيه قبيلتان معروفتان باسم بنى بجير، وبنى الروحة وعددهما ثلاثمائة نسمة.

وفى نهاية وادى (ويبة) محل يسمى حلى تسكن فيه قبائل بالمنتشر، وبالعريان، وعوامر، وبالكنانى ويصل عددها إلى أربعة آلاف نسمة تقريبًا.

وتسكن بجوار أبى العريش قبيلة مسارحة وجيزان بالقرب من نجران قبيلتا بنى سبيل وبنى شبيل. ويبلغ عدد كلها ستمائة نسمة.

وقد سكنت قبيلتا بنى مروان وحرض بين جيزان واللحية ولما كانتا عريتين عن الأخلاق والفضيلة، فضلتا التعيش عن طريق اللصوصية وقطع الطرق، ويكاد أن يبلغ عددهم ألف وخمسمائة فقط وتسكن القبائل: بنى قصير، بنى جامع، بنى شيبة، بنى شايع بجانب اللحية ويبلغ عددهم ألف نسمة تقريبًا.

ويبلغ عدد مجموع أفراد قبائل بنى زين، وبنى راجح، والفرانتة، وبنى طاهر، وبنى هيجان التى تسكن فى الوادى المشهور بالواعظات فى الجهة الشرقية من اللحية سبعة آلاف نسمة.

وتسكن قبيلتا بنى حسن، وبنى عبس وقبيلة أسلم فى القرى التى أمام وادى الواعظات، ويشتهر سكان كل قرية باسم القبيلة التى ينتسبون لها ويذكر العارفون أن عددهم يبلغ خمسمائة نسمة.

وفى الأماكن التى تمتد فى محاذاة اللحية إلى مضيق سندس جالية من القبائل البدوية الرحل، ولما كان سكان هذه المنطقة يسكنون فى القرى والمدن فإنهم يشتغلون بالزراعة والتجارة.

ولما كانت الحرارة شديدة فى تهامة لا تنبت بها شجرة البن، وينحصر نمو أشجار البن فى اليمن فى الأماكن الجبلية ووديانها.

نفس اليمن وصنعاء:

تقع نفس اليمن فوق الأراضى المرتفعة والجبال العالية. وتشمل قرى متعددة عامرة وأماكن قابلة للزراعة.

وأكثر جبالها ليست جرداء كالجبال الأخرى، بل هى تتكون من الوديان الصالحة لنمو الأشجار وقابلة للزراعة، ويدخل فى حكم هذا الإقليم جبل عسير أيضًا.

وأجل بلاد اليمن وأشهرها مدينة صنعاء التى تقع على بعد تسع وخمسين ساعة فى جهة اليابسة. تقع تلك المدينة فى الشمال الشرقى من بلدة مخا وعلى بعد مائتين وخمسة وأربعين كيلو متر منها، وفى درجة واحدة وتسع وثلاثين دقيقة من خط الطول الشرقى، وخمس عشر درجة وعشرين دقيقة من خط العرض الشمالى، وكانت قديمًا فى غاية من العمران، وإن كانت تخربت فيما بعد، ولكن لما أعيد لها أمنها بعون السلطان أخذت تزدهر عمرانيًا مرة أخرى. وهى مدينة لطيفة وتتزين أطرافها بالحدائق والبساتين.

ويبلغ عدد سكانها ثلاث وعشرين ألف نسمة وأربعمائة، تسعة عشر ألف وسبعمائة منهم مسلمون، والبقية يهود.

وهى كثيرة المياه والثمار وتشبه دمشق الشام من هذه الناحية، بقربها قصر غمدان من آثارها العتيقة المشهورة.

والمدينة على سفح جبل ويحيط بها سور ذو أربعة أبواب، وفى داخل السور أربعة وعشرون جامعًا كبيرًا وما يقرب من عشرين مسجدًا وكثير من القصور وأربعة حمامات وخانات.

وفى الأراضى الساحلية لليمن والتى يطلق عليها تهامة يمكن زراعتها أربع مرات فى السنة، إلا أن شدة الحرارة لا تسمح بنمو النباتات مثل القمح والشعير.

وتزرع فيها حبوب مثل الذرة والدخن كما تزرع فى جبالها الحنطة والشعير والسمسم مرتين فى السنة، وتنبت هنا جميع الفواكه والخضر التى تنبت فى البلاد الأخرى، ولكن محصولها الذى يجلب نفعًا كبيرًا هو البن.

وكانت شجرة البن قديمًا خاصة باليمن، ولكنها نُقلت فيما بعد إلى البلاد الأخرى حيث أُنبتت فيها.

وقد جربها أول مرة أهل اليمن وعرفوا بعد التجربة خاصيتها النافعة، وأخذوا يستعملونها ويشربونها فتبعهم بعد ذلك أهالى البلاد الأخرى.

والقهوة اليوم وسيلة رئيسية لإكرام الضيوف وتحيتهم وقد صدق الأطباء بعد التجربة على خاصية القهوة فى التنبيه والتنشيط وأثرها اللطيف على الأعصاب. وأجود أنواع البن التى تنبت فى بلاد اليمن.

المانجو:

فاكهة المانجو خاصة بالهند وهى تشبه الخوخ. وتنبت فى مدينة صنعاء أيضًا، ولهذه الفاكهة رائحة فى غاية الجمال وطعمها فى غاية اللذة، ورائحتها الطيبة يمكن أن تعطر غرفة. وعندما تكون نيئة تصنع منها سلاطة ومخلل. وعندما تنضج تطرى مثل الليمون الحلو، ولما كانت قشرتها غير قابلة للتقشير تثقب ويمتص عصيرها. إنها فاكهة حلوة لذيذة.

والعربان الذين يكونون قبائل رفاعة، العبيدات، الهجاهجة، بنى كبير، أو كلوب، والعبادلة، والبيشة يسكنون فى الأراضى الواقعة فى الجنوب الشرقى من الطائف ويبلغ عددهم عشرين ألفًا.

وبما أن قبيلة البيشة فى حدود متصلة بأهل عسير فقد حدثت بينهما حروب شديدة لمدة طويلة، وفى نهاية الأمر تغلب أهل عسير على قبيلة بيشة.

وإن قيل إن قبيلة بنى سعد تقيم فى الجهة الجنوبية من الطائف، أى بين الطائف وعسير إلا أن قبائل: بنى ميمون، بنى مالك، ناصره، زهران، غامد،

شمران، بالقرن، بنى الأسمر، بنى الأحمر وشهران تسكن أيضًا داخل الأراضى المذكورة. وتتشعب من هذه القبائل قبائل أخرى بأسماء مختلفة. ويصل عدد مجموعها إلى مائة وستين ألفا.

ولما كان أكثرهم متحضرين ويسكنون فى الأراضى المنبسطة على سفوح سلسلة الجبال، أى يسكنون فى أراضى تهامة اليمن فإنهم يزرعون الذرة، والدخن والسمسم والقطن، كما يزرعون فوق الجبال الشعير والقمح والذرة والدخن وكلهم يتعايشون بالزراعة والفلاحة.

ومقر سكن قبيلة زهران من القبائل المذكورة جبل زهران وتهامة لما كانوا كلهم من أصحاب الزراعة والطاعة فإنهم يسكنون فى ثلاثمائة قرية خاصة بهم.

والعربان الذين يسكنون فى غرب جبل زهران وفى الأراضى المستوية المسماة بتهامة يزرعون الذرة والدخن والذين استقر بهم المقام فوق الجبل المذكور يزرعون الذرة والدخن كما يزرعون القمح والشعير ويحصدونهما ويزرعون من حين لآخر اللوز.

وفى الطرف الجنوبى من جبل زهران جبل آخر يسمى غامد، ويسمى عربان هذا الجبل غامد وهؤلاء أيضًا لهم ما يقرب من ثلاثمائة قرية خاصة بهم.

وفى خمسات القبائل المذكورة قبيلة بنى عمر، وفى أماكن إقامتهم تنمو شجرة البن غير الحبوب المذكورة.

ويطلق على العرب الذين يسكنون جبل غامد وسهوله بلدى وعلى هذه الأراضى الحجاز، وعلى سكنتها الحجازى ويطلق على قبائل بنى كبير، وهجاهجة، وعويضاضى، وزهران، ورفاعة التى تسكن فى الجهة الشرقية من جبل غامد «البدو» لأنهم مازالوا فى حالة البداوة.

وإن كانت الجبال التى يطلق عليها ميمون وشمران وبالقرن بين جبل غامد وجبل عسير إلا أنها فى داخل الخطة اليمانية وستذكر فى مواضعها.

عربان عسير:

وأهل عسير الأصليون من أفراد قبائل بنى علقم، رفيرة، وبنى ربيعة، ومقيد، التى تسكن بين الطرف الشمالى والطرف الجنوبى لعسير يكاد أن يبلغ عدد نفوسهم إلى عشرة آلاف.

وعندما اعتنق أمير عسير السابق محمد بن عائض سياسة السيف والقوة فأخضع أغلب القبائل العربية التى بجوار جبل عسير بالقوة وكون جماعة كبيرة، لذا أراد أن يثور ضد الدولة العلية إلا أن قوة السلطان القاهرة داسته بالأقدام وأتباعه، واستكمل سعادة رعاياه المتعطشين للعدل والرحمة.

قحطان:

تسكن فى الطرف الشمالى لجبل عسير والأراضى التى تمتد إلى جنوب ذلك الجبل قبائل رقيف اليمنى، عبيدة، شريف، سحان وداعة التى تسمى قحطان.

وتنمو أشجار البن ابتداء من الجبل الذى تسكنه قبيلة وداعة إلى محاذاة باب المندب والجبال الممتدة بينهما وما بين تلك الجبال، ويعيش الذين فضلوا الإقامة فى هذه الأماكن فى القرى والمدن وتذكر جماعة كل قبيلة باسم المحل الذى تسكن فيه.

وفى الجهة الشرقية من جبل عسير واد يسمى نجران، وتسكن فى هذا الوادى شعبة من قبيلة يام التى يبلغ عدد أفرادها ثلاثين ألفًا.

ويمتد وادى نجران ما يقرب من ثلاثة أيام وفى هذا الوادى ماءان جاريان كبيران كما أن فيه أشجار النخيل بوفرة. وتقيم شعبة من قبيلة (يام) فى جبل حراز.

كما أن قبيلتيهما المسميتان ذوى محمد وذى حسين كثيرتى العدد، وتستوطنان جبل برط فى الطرف الشرقى لوادى نجران. وكانت هاتان القبيلتان من القبائل العربية المتسلطة فى الأوائل، وكانتا تغيران على أكثر أنحاء البلاد اليمانية وتنهبان

أموال السكان وتسلبان أشياءهم، وتحرصان على فرض الإتاوة على أهالى المدن والقرى. حتى إن الأئمة الزيدية الذين يحكمون صنعاء كانوا عاجزين عن منع إغارتهما وتسلطهما.

وهناك ثلاث قبائل أخر والتى تعرف بأسماء آل مرة، والكرب، والصيعر مأواهم بين جبل برط وإقليم حضرموت. وإن كانت هذه القبائل ذوات أفراد كثيرة مثل قبيلتى ذوى محمد ذوى حسين، فكلهم يعيشون تحت الخيام وفى حالة الترحل دائما.

وتطلق على البلاد التى تقع فى الجهة الجنوبية من جبل برط بلاد حاشد، وتعيش فى هذه البلاد قبيلتا نهم، وأرحب ويصل مجموع عددهما إلى ألفين وخمسمائة نسمة، تعيش فى بلاد عمران أى بين حدود بلاد حاشد وهمدان قبائل يبلغ عددها خمسمائة أو ستمائة نسمة وكلها تشتغل بالزراعة والفلاحة. وتسكن قبيلة همدان ذات الألف نسمة بين أراضى بلاد عمران وبلدة صنعاء.

قبيلة بنى مطر:

يسكن أفراد هذه القبيلة بين الأراضى التى بين صنعاء وحجة. ويبلغ عدد سكانهم عشرة آلاف نسمة تخمينا ويعمل جلهم بالفلاحة ويتعيشون بها.

كما أن أفراد قبيلة البروية، والذين يبلغ عددهم عشرة آلاف، يشتغلون بزراعة أشجار البن والحنطة والشعير والذرة والفواكه وبيعها ويمضون حياتهم بين الجبال والأودية.

ويبلغ عدد أفراد قبيلة (حضور) الذين يعيشون فى الأراضى الملاصقة لأراضى قبيلة البروية أربعة آلاف نسمة، وهؤلاء أيضًا يعملون فى الزراعة والفلاحة.

تسكن فى الجهة الشرقية من أراضى صنعاء قبائل بنى شداد، خولان، بنى جبر، بنى عبس، بنى فلاح، ضبيان، بنى مجاهد وبنى قيس الأعماس التى يبلغ عددها أربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة تخمينًا.

بلاد حضرموت ومكلا وشحر وتريم.

من الأقسام العظيمة لجزيرة العرب حضرموت. وهذه القطعة تقع، كما سبق بيانه أعلاه، فى الجانب الجنوبى من الجزيرة العربية وبين اليمن والقطعة اليمانية، ومن درجة ثلاث عشرة إلى سبع عشرة درجة لخط العرض الشمالى، وثلاث وأربعين درجة إلى أربع وخمسين درجة فى الخط الطولى الشرقى، ويحدها من الجانب الغربى قطعة اليمن، ومن جانبها الشرقى قطعة عمان، ومن جانبها الشمالى (الأحقاف)، وجانبها الجنوبى بحر عمان، ومن مدنها الساحلية المشهورة مكلا، وشمر، وظفار، ومرباط، وحاسك.

وظلت قطعة حضرموت فترة فى يد الأئمة الزيدية المقيمين بصنعاء كما ظلت من سنة تسعمائة إلى سنة ألف ومائة فى يد أسرة كثيرى من أعيان حضرموت، وبعد ذلك استولى النواب الذين عينوا من قبل آل كثير من قبيلة يافع على البلد الذى يحكمه؛ وذلك لإصابة قوة إدارة آل كثير بالضعف والوهن. وفى فترة ما سافر شخص من آل كثير يسمى الأمير غالب إلى الهند ثم عاد وقد كسب كثيرًا من الذهب، واشترى عددا كثيرًا من العبيد ثم هجم مع من استطاع أن يجمع من أفراد قبيلته فى سنة ألف ومائتين وستين على بلده تريم، غرف، ومريمة، وسيوون، وتريس، واستولى عليها ومات سنة ألف ومائتين وسبع وثمانين.

وبعد موت الأمير غالب جلس مكان أبيه ابنه منصور، واستولى هذا أيضًا على أماكن كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يستولى على قطعة حضرموت كلها. فانقسمت قطعة حضرموت إلى الحكومات الآتية:

مكلا:

تقع مدينة مكلا ـ كما ذكر آنفًا ـ على شاطئ البحر فى قطعة حضرموت، وعلى بعد اثنتى عشرة مرحلة بالجانب الشرقى من مدينة عدن برًا وهى مدينة كبيرة جميلة. ويقدر سكان مكلا عامة بأربعين ألف نسمة تقريبًا.

ومكلا الآن مع المدن الآتية: بروم، الديس، الحض، وروكب تحت إدارة أمير يسمى النقيب صلاح، وهو يفتخر برفع الراية العثمانية.

وللمدن المذكورة دخل سنوى من دائرتها الجمركية أربعة أو خمسة آلاف كيس من النقود ما عدا محاصيلها الأخرى.

شحر:

شحر مدينة على الطرف الشرقى وعلى بعد مرحلتين من مكلا، وعلى ساحل البحر لحضرموت وعدد سكانها يقترب من خمسة آلاف نسمة وهذه البلاد فوق جبل، وكان يعرب بن قحطان عين أخاه (عامر) واليًا على هذا الجبل. ولما كان عامر يحضر جميع الحروب التى تحدث وقته وكان شجاعًا قويًا شديدًا فى القتال فاستخدموا تركيب حضرموت الذى يعنى حيثما وجد عامر فالموت حاضر. فى حق عامر ثم أطلقوا على القطعة حضرموت بتسكين حرف (ض).

وتعد شحر الآن مع ناحيتى شيام، وقطن الواقعتين فى جهة الجبل تحت حكم أمير يسمى قعيطى ومقر إمارته وإقامته بلدة شحر وللمدينة المذكورة مياه جارية وحدائق النخيل ولها دخل كبير من زراعة التبغ.

تريم:

وتريم فى داخل حضرموت وعلى بعد إحدى عشرة مرحلة من مكلا من جهتها الشمالية، وعلى بعد خمسة عشر ميلاً من (زمار) وهى بلدة خربة.

وهذه البلدة مع مدن غرف، مريمة، سيوون وتريس تحت حكم وإدارة شخص يسمى الأمير منصور.

وكانت هذه البلدة فى الأوائل فى غاية العمران واسعة الأنحاء كثيرة السكان ومقراً للعلماء إلا أن غارات العربان المتسلطين المتكررة أجبرت سكانها على ترك ديارهم، فآلت إلى الخراب الآن. ولم يبق فيها غير ثلاثة آلاف من سكانها بعد أن كانت مدينة عامرة بثلاثمائة من المساجد والجوامع.

الوديـان:

ينقسم إقليم حضرموت إلى شعب متعددة وبعض الوديان، وأحد هذه الوديان الرئيسية وادى يبعث الذى يمتد من الجنوب الغربى لقطعة حضرموت إلى الشمال الشرقى منه، وإلى المحل المسمى نبى الله هود ويشمل الثمانى القرى التابعة لبلدة بروم، وتقيم قبائل آل عمودى، وآل بالعبيد، وكرب التى يبلغ عدد نفوسها ألف وخمسمائة نفر. ويروى سياح العرب أن لهذا الوادى قدر من أشجار النخيل ومياه جارية.

وادى حجـر:

من الوديان المشهورة وادى حجر الذى فى داخل بلدة بروم وعلى بعد مسافة ثلاثة أيام منها.

وفى هذا الوادى ما يقرب من مائة ألف نخلة، وعشرون نهرًا جاريًا. ويبلغ من أول هذا الوادى إلى آخره فى أربعة أيام، ويسكن فى داخله جماعات من قبيلة نوح.

ومن أحد وديان حضرموت المهمة وادى ريدة الديك الذى يقع أمام وادى حجر، والذى يشتهر بين العربان بكثرة نخليه.

دوغـن:

من الوديان المشهورة بعد وادى ريدة الديك وادى دوغن، وطول هذا الوادى أربع وعشرون ساعة وعرضه نصف ساعة.

وفى الأراضى التى يشتمل عليها وادى (دوغن) إحدى وعشرون قرية صغيرة وكبيرة. وتسكن فى هذه القرى قبائل آل العمودى، المراشدة، القشم، الخامعة ونوح وعدد أفرادها يبلغ ألفين وخمسمائة نسمة.

وإن لم تكن لوادى دوغن مياه جارية إلا أنه يُسقى بمياه الأمطار، وأحيانًا يروى بمياه الآبار. وله حدائق كثيرة تحوى أربعين ألف نخلة فهو موقع مبارك ومنبع زراعة وتجارة.

وادى ليسر:

ليسر شعبة من شعب وادى (دوغن) ويمتد طولاً اثنتى عشرة ساعة، وعرضًا نصف ساعة وهو واد مشهور.

ويحتوى هذا الوادى على عشر قرى وعلى خمسين ألفا من النخيل وجميع أنواع المغروسات والمزروعات والحدائق والبساتين.

وتسكن فى ذلك الوادى الذى يجمع ألف شخص تقريبًا، القبائل المعروفة باسم الحالكة، وآل محفوظ، وآل يزيد، وآل بطاطى، وآل كثير.

وادى العين:

ويشتمل وادى العين الذى يمتد طولاً أربعًا وعشرين ساعة على خمس قرى، وثلاثين ألف نخلة وكثيرًا من الحدائق، ويسكنه آل عوابسة الذين يبلغ عددهم خمسمائة نسمة.

وادى عمد:

يمتد وادى عمد اثنتى عشرة ساعة طولاً ونصف ساعة عرضًا. وفى داخله حدائق كثيرة تشمل مائتى ألف نخلة، ستًا وعشرين قرية صغيرة وكبيرة وتقيم فى هذه القرى قبائل باطليب، باتييس، بنو ماضى، الجعد، الصقر، نهد، كز وبنى مخاشن.

وتتحد نهاية وادى عمد و (دوغن) السابقى الذكر فى مدينة قفل، وموقع كز الذى يمتد من هذا المكان يتصل بمدينة حزير.

وادى رخية:

والوادى الذى يطلق عليه رخية يمتد طولاً ست ساعات وعرضًا نصف ساعة ويشتمل على عشر قرى ويشتمل على عشرة آلاف نخلة.

وتسكن فى هذا الوادى قبائل آل على، بنى حيدرة، بنى بالليث وشحا التى يتجاوز عددها ثلاثمائة نسمة.

وادى دهـر:

يمتد وادى (دهر) ثلاث ساعات طولاً ويشتمل على قرى كثيرة ذات نخيل. ويستوطن فى هذا الوادى قبائل آل بالعبيد، والصيعر، ويافع، وعددهم ألفان وخمسمائة نسمة.

وادى ابن راشد:

ينقسم وادى ابن راشد إلى جزءين ويبدأ الجزء الأول من مكان يطلق عليه شيام ويطلق على هذا الجزء وادى قيلى ووادى سر.

والجزء الثانى هو ما يقع أمام قرية ساه ويسمى وادى بحرى ووادى عدم.

ويتحد هذان الواديان فى محل يطلق عليه غرف، وينتهى عند قرية نبى الله هود الواقعة فى انتهاء وادى ابن راشد الذى يمتد نحو جهة الشمال ثلاثة أيام طولاً.

ويشمل وادى ابن راشد ست وستين قرية صغيرة وكبيرة، وحدائق متعددة تحتوى على مليون نخلة.

وتقيم فى هذه القرى قبائل آل كثيرى، العوامر، آل باجرى، آل جابر وآل تميم ويتجاوز عددهم ستة آلاف نسمة.

وإن كانت البلدة والقرى التى حكمها الأمير منصور بن غالب السالف الذكر داخل الوادى المذكور، إلا أن أهالى القرى المذكورة خارج أفراد القبائل الخمس التى تحدثنا عنها، فالقبائل العربية التى تسكن حول حضرموت هى القبائل الرئيسية التى سنتحدث عنها فيما يأتى.

تسكن قبيلة يافع فى الجبال الواقعة على الطرف الشرقى الشمالى لمدينة عدن وعددهم يبلغ عشرين ألفا تقريبًا.

عواليق والأخرى:

تستوطن قبائل عواليق، آل ديب، آل عبد الواحد، شيبان، عكابرة وبنى

حسن فى الأراضى التى بين مدينة مكلا، ومدينة عدن ويبلغ عدد مجموع أفرادها إلى خمسة آلاف نسمة تقريبًا.

آل حموم:

تسكن قبيلة الحموم التى يبلغ عدد سكانها ألف نسمة فى أطراف بلدة شحر وجوارها.

نبى الله هود، ومناهل، ومهرا:

تقيم قبائل بنى نبى الله هود، ومناهل، ومهرا فى الأماكن الواقعة بين قرية نبى الله هود التى ينتهى عندها وادى ابن راشد، وبلدة ظفار ويبلغ عدد سكانها إلى ألفين تقريبًا.

ويسكن فى داخل قطعة حضرموت ثلاثة آلاف من السادة الكرام الذين ينتمون إلى النبى ﷺ نسبًا ويجدون من السكان الآخرين احترامًا وافرًا. واليوم فالسادة الكرام الذين يُسمون السادة العلوية هم المعنيون بهذا الاسم والسادات العلوية الموجودون فى مكة المكرمة والمدينة المنورة متفرعون منهم.

وإن كانت الأراضى التى فى سفوح جبال قطعة حضرموت صالحة للزراعة، إلا أن خصوبتها ضعيفة وأكثر أماكنها خالية من المياه والأعشاب، لذا يتعايش سكانها بصيد السمك على شواطئ البحر، ويعلفون حيواناتهم بالسمك، ولما كان على شاطئ البلاد التى يعيشون فيها عنبر خام فهم يجمعونه ثم يبيعونه.

وكذلك الجوز الهندى، تنباكو، والعرر، والصمغ العربى والبخور والحنطة، البلح والنيلة من المحاصيل الخاصة بحضرموت، والنباتات التى تنبت فى الهند تنبت فى جبال حضرموت.

فى صحراء الأحقاف التى تقع بالجانب الشمالى من حضرموت توجد صحراء رملية متحركة والتى تسمى بحر الصاف، فكثيرون من المسافرين حينما يعبرون هذه الأماكن فى الأيام العاصفة يموتون وتغطيهم الرمال، ولما كانت غير قابلة للزراعة والفلاحة فهى غير مسكونة.

والمدينة التى ذكرت فى التواريخ بـ «الرس» و «بئر معطلة» و «قصر مشيد» كانت فى داخل قطعة حضرموت.

وكان سكان هذه المنطقة يعانون من قلة المياه، ويحملون المياه التى يشربونها من أماكن بعيدة، وفى النهاية وهبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ واهب الوجود بئرًا غزيرة المياه، ولما كانوا من عبدة الأصنام وقتلوا نبيهم حنظلة بن صفوان انقطعت مياه البئر وهلكوا بعذاب أليم.

والبئر التى يقال لها **البئر المعطلة** هى تلك البئر. أما **القصر المشيد** كان البرج الذى بناه صد بن عاد من رؤساء العرب البائدة بغرض مقاومة الرياح العاصفة الفاسدة.

وإن كان صد بن عاد قد بنى هذا القصر لمواجهة الغضب الإلهى، إلا أنه لم يمت بمفرده بل هلك أولاده وأحفاده أيضًا وانهار قصره وأصبح مأوى البوم والغربان، ويروى أن بعض أماكن خرائب القصر مازالت موجودة إلى الآن.

ظفـار:

تقع بلدة ظفار بين حضرموت وعمان وعلى ساحل البحر، وطولها على ساحل البحر ست مراحل وعرضها تسع مدن.

ولما كانت أكثر قراها ومدنها على سواحل البحر، فسكانها يعملون فى الزراعة والفلاحة كما أنهم يصطادون السمك ويتاجرون فى اللؤلؤ والصدف.

إن قبيلة آل كثير التى يبلغ عدد سكانها خمسمائة نسمة تسكن الوادى المطل على القصبان التى سكنها قبيلة قرا وشحره ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة تقريبًا.

إن جو ظفار مثل جو الهند فتسقط الأمطار كل عام فى فصل الصيف ويهبط الماء الناتج عنها إلى الوادى باستمرار.

فينزل الماء الذى يسقى الأراضى فى فروع كأنها نهر جار وتكون عميقة لدرجة أن القوارب تسير فيها. انتهى.

ولأن الأمطار لا تنقطع فى فصل الخريف فقوة الإنبات تصل إلى حد الكمال وتنبت فيها كل الفواكه التى تنبت فى الهند، وليس بها حاكم مستقل فهى تابعة لشيخ المنطقة.

البلاد التى تشملها عمان:

إن عمان من الأجزاء الكبيرة للجزيرة العربية:

تقع عمان فى الجنوب الشرقى للجزيرة الكبيرة وطولها من خليج البصرة إلى ساحل بحر عمان ثلاثة وخمسين درجة، وسبعة وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من جهة الشرق وعرضها الشمالى من اثنين وعشرين درجة إلى سبعة، وعشرين درجة يحدها شرقًا المحيط الهندى وشمالا خليج البصرة وجنوبا جبل الأحقاف وغربا جبال اليمامة.

وبما أن طبيعة عمان وأرضها أخصب وذات قدرة على الإنبات أكثر من كل المناطق فهى تحتوى على كثير من القرى والقصبات، وأرضها تنبت كل المحاصيل والفواكه وطبيعة أهاليها متحضرة وليست بهم خشونة البدو.

ولأن أغلب قراها وقصباتها تقع على الساحل فسكانها يعملون بالفلاحة والزراعة وصيد الأسماك واللؤلؤ.

وكانت إدارة قطعة عمان قد أحيلت إلى عمان بن قحطان أخى يعرب، ثم استقل بعد فترة وبعد وفاته تولى إدارتها قضاعة بن مالك بن حمير وفى النهاية استولى عليها حاكم اليمن سكسك بالقوة من قضاعة. وإن كان مالك بن إلحاف حفيد قضاعة استردها من يد ابن سكسك فى زمن سلطنة يعفر، ولكن الحكومة اليمنية عندما قويت ألحقت إدارة عمان إليها وأديرت من قبل اليمن بواسطة الولاة، ثم انتقلت إدارة عمان إلى أئمة المشايخ بعد أن ضعفت حكومة اليمن.

وعندما نجت منطقة عمان من استيلاء القرامطة أديرت بواسطة الأئمة المحليين المنتخبين كما كان فى السابق. وفى سنة تسعمائة الهجرية طمع فيها البرتغاليون

والهولنديون والإيرانيون. وفى سنة تسعمائة وإحدى عشرة استولى على جميع سواحلها البرتغاليون وفى سنة ١٠٥٧ انتزع الأهالى الشواطئ من يد البرتغاليين بانتصارهم عليهم إلا أن بعض أماكنها استولى عليها الهولنديون وبينما كان الأهالى الشجعان يطردون الهولنديين تعرضت البلاد لتسلط الإيرانيين ولكن الأهالى استطاعوا أن يطردوهم أيضًا وذلك بمساعدة حاكم شحر وهمته وإقدامه.

وبناء على ذلك انتخبوا الحاكم المذكور أميرًا لهم وبايعوه سنة ١٢٦٧هـ.

ومات أحمد بن سعيد بعد حكم دار واحدًا وعشرين عامًا فى سنة ١١٨٨هـ وتولى الحكم بعده ابنه صمد وبعد أن حكم ما يقرب من عشرين عامًا أيضًا تولى الحكم سلطان بن صمد وبعد وفاته تولى الحكم أخو صمد سعيد بن أحمد بن سعيد.

وكان سعيد بن أحمد بن سعيد من بين هؤلاء الحكام أذكاهم وأعقلهم وبعد أن دبر شئون إدارة بلاده مال إلى الجهاد وتوسيع بلاده، فابتدر بإنشاء سفن حربية كافية وبعدما انتهى من بناء أسطوله استطاع أن يستولى على جزر زنجبار سوقطرة وبعض البلاد التى فى قارة أمريكا[1] كما استولى على بعض أجزاء السواحل التى كانت فى يد إيران وجزر هرمز وكشم و رج، والبحرين، وهكذا وسع دائرة حكومته ثم بدأ فى الإصلاحات الداخلية.

وقسم البلاد التى تحت حكمه ـ قبل الوفاة ـ إلى ثلاثة أقسام، وترك جزءًا منها لابنه الكبير توينى ويشمل الجزر التى فى خليج البصرة والأماكن الواقعة بين برقة والجبل الأخضر فى عمان وبعض سواحل أفريقيا وجزيرتى زنجبار وسوقطره لابنه الثانى ماجد، والأماكن التى تقع على الجانب الغربى من عمان لابنه الثالث تركى[2].

(١) كذا فى الأصل، ولعله من وهم الناسخ. والصواب أفريقيا.
(٢) اسم تركى الآخر (ماجد).

ولما كان هذا التقسيم منافيًا لقاعدة بناء الحكومة فكأنه وضع بين أبنائه نار الفتنة وكان هذا خطؤه الكبير.

ورغب تويني عقب وفاة والده في أن يفرض سلطته على أخيه ماجد، وذلك بإجباره على دفع ضريبة معينة له وأدت هذه الفكرة الخاطئة إلى قيام الحرب بين الأخوين، وبعد هذا استمرت الحرب سنتين تدخلت دولة إنجلترا بينهما وأصلحت بين الأخوين وذلك بشرط أن يدفع ماجد لأخيه الكبير أربعين ألف ريال سنويًا وأن يستقل بجزيرة زنجبار والسواحل الإفريقية.

واستطاع تويني بواسطة إنجلترا أن يمتلك ثلثي عمان من أجود الأراضي وأشهرها وأن يكون حاكمًا على أهاليها.

ولكنه لم يكتف بذلك إذ جعل أقصى آماله أن يستولي على الأراضي التي تحت يد أخيه الصغير وبهذا ساءت العلاقات بينهما.

وإن كان تويني في الظاهر أقوى من أخيه تركي إلا أن أغلب أهالي عمان كانوا أنصار تركي؛ لذلك لم يرضوا بأن تخرج البلاد من يده وحكمه، وفي أثناء الحرب تخلى جميع أتباع تويني عنه وعرضوا بيعتهم على تركي.

وتدخلت دولة إنجلترا مرة أخرى بين الأخوين لإصلاح ما بينهما واستدعت تركي إلى مسقط.

فانتهز تويني هذه الفرصة فقبض على تركي وحبسه، عندئذ زادت الثورة الداخلية اشتعالا، فخاف تويني على روحه وهرب، واستعان بأمير نجد الشيخ فيصل في سنة ١٢٧٠ فقبل الشيخ المذكور طلبه وأرسل ابنه عبد الله بقوة عظيمة إلى القطعة العمانية.

واستولى عبد الله بن فيصل على أغلب الأراضي التي تحت حكم تركي، وأخضع أهاليها وأدخلهم تحت طاعة تويني وحصل على جميع النفقات الحربية من تويني كاملة، وأخذ منه عهدًا على أن يدفع لإمارة نجد عشرة آلاف ريال سنويًا ثم عاد عبد الله بن فيصل إلى قطعة نجد التي تحت حكم أبيه.

ودام تدخل أمير نجد إلى سنة ١٢٧١هـ وبعد ذلك أصبحت جميع أراضى عمان فى يد توينى مستقلاً كما بقيت إدارة زنجبار وسواحلها تحت تصرف أخيه ماجد.

ولما مات توينى سنة ١٢٨٥ الهجرية تولى الحكم ابنه سالم الذى أسرع فى القبض على عمه تركى وسجنه ولكنه نجا من السجن بتدخل الإنجليز وسافر إلى بومباى.

ولما رفع عزان أحد أقارب سالم راية العصيان وانتزع الملك من يد سالم فى السنة الثانية من حكمه سمع تركى الذى سافر إلى بومباى بالأمر فعاد إلى عمان، وقتل عزان فانتقلت البلاد التى كانت تحت حكم توينى إليه فى سنة ١٢٨٧هـ كما أن برقش أخا ماجد احتل مكانه بعد موته منذ خمس سنوات، وأصبح حاكم زنجبار وسواحلها، وهكذا لاقى توينى جزاء ما ارتكبه ضد أخويه.

مسقط:

وتقع مدينة مسقط على شاطئ بحر عمان وعلى بعد ألفى كيلو متر من مكة المكرمة فى الجانب الشرقى منها عند درجة ٥٩ وعشرين دقيقة على الخط الطولى الشرقى وعند درجة ٣٣ و ٣٨ دقيقة على الخط العرضى الشمالى وهى أعظم مدن عمان وأشهرها.

يمكن أن يصل عدد سكان مدينة مسقط إلى ستين ألف نسمة مرساها فى غاية الاتساع والسفن التى ترسو فى داخله مأمونة من جميع أنواع العواصف.

عمان:

وأحد مدن منطقة عمان المشهورة مدينة عمان التى تقع على الجانب الشمالى الغربى وعلى شاطئ البحر وعلى بعد مائتى كيلو متر وعشرين من مسقط.

ولما كانت بجوار بلدة عمان منابع ماء كثيرة تبع من جبل قريب منها فلها حدائق كثيرة ونخيل إلا أن محصولاتها الرئيسية القمح والذرة والشعير.

وقطر الذى بين حسا وعمان وجزيرتا فارستان وكرمان الواقعتان على الساحل الفارسى من خليج البصرة وجزيرتا زنجبار وسقطرة على الساحل الأفريقى

الشرقى، والأماكن التى تطلق عليها كرمد والتى تقع على رأس غار دافوى فى الجهة الشرقية من قارة أفريقية، كلها من ملحقات مسقط. وعندما يُضم أهالى هذه المناطق أيضًا لسكان قطعة عمان، يبلغ عدد سكانها إلى مليونين ومائتين وثمانين ألف نسمة.

زنجبار:

وزنجبار هذه الجزيرة من جزر المحيط الهندى، ومملكة زنجبار على سواحل هذه الجزيرة، وتقع على درجة ٣١ من الخط الطولى الشرقى وعلى ست درجات ودقيقتين للخط العرضى الجنوبى.

ويبلغ طول جزيرة زنجبار ثمانين كيلو مترًا، وعرضها خمس كيلو مترات ويبلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة.

وهواء الجزيرة المذكورة شهير ولها علاقات تجارية بجزيرة مورس وقارة أفريقيا وأراضيها صالحة للزراعة والفلاحة وفيها جميع أنواع المحصولات ويوجد على سواحلها عنبر أيضًا.

سُقُطْرة:

سقطرة إحدى جزر المحيط الهندى وتقع فى الجهة الشرقية من قارة أفريقيا وعلى بعد مائة وسبعين كيلو متر من رأس غار دافوى وعلى الجهة الشرقية منه أيضًا وعلى درجة ٥٠ و ٤٥ دقيقة وأيضًا على ٥٢ درجة وعشر دقائق من الخط الطولى الشرقى وإحدى عشرة درجة وخمسون دقيقة واثنتى عشرة وثلاثون دقيقة من الخط العرضى الشمالى.

وطول جزيرة سقطرة مائة وخمسة عشر كيلو متر وعرضها أربعون كيلو مترًا ويبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة تخمينًا ومن محاصيلها الصبر الأصفر، واللبان، وأجود أنواع الصمغ الأحمر، والمرجان، وحب الهال.

الحسا[1]:

إقليم الحسا من أقاليم الجزيرة العربية المتسعة، ويضم أكثر من مائتى قرية ومدينة.

(١) يطلق عليه الإحساء أيضا.

وكانت منطقة الحسا اسم دائرة ولما استولى عليها القرامطة أطلق على المدينة التى بناها أبو طاهر القرمطى وهى هجر الحسا، ويطلق على هذا الإقليم بلاد هجر وبلاد البحرين أيضًا.

ويقع هذا الإقليم المتسع على الجانب الشمالى الغربى لمنطقة عمان وعلى طول سواحل خليج البصرة وفى الدرجة من ٤٨ إلى ٥٢ درجة فى الخط الطولى الشرقى ومن ٢٠ درجة إلى ٢٩ درجة فى الخط للعرضى الشمالى.

ويبلغ عدد سكانها مائتى ألف وخمسين ألفا تقريبًا.

وبلاد خفوف ورأس الخيمة وقطيف العظيمة فى داخل إقليم حسا. وخصوبة أراضى الحسا شديدة ولها جزر كثيرة على ساحل البحر.

وأهم هذه الجزر جزيرة البحرين ومنها يستخرج أجود أنواع الصدف واللؤلؤ. ويتكسب أغلب أهاليها قوتهم من صيد السمك واستخراج اللؤلؤ والصدف وتجارتهما.

وكان قديمًا أكثر عمرانًا من الآن، وكان سكان قارة إفريقية فى الأوائل يأتون بأموال كثيرة وأشياء عديدة إلى قطيف بحرًا ويبادلون أموالهم باللآلئ.

وكان موسم استخراج اللآلئ يبدأ من شهر يونيو ويستمر إلى شهر سبتمبر وكانوا يربحون من بيع اللألئ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف جنيه إنجليزى. وكانوا يمتلكون ما يقرب من أربعة آلاف سفينة لصيد اللؤلؤ، وهذا دليل قاطع على ما كان عليه أهالى (القطيف) من ثروة وغنى.

ويروى أن فى قعر البحر منابع مياه حلوة، حتى إن الغواصين يحصلون على مياه شرب من فى السفينة من هذه المنابع.

وفى الحسا مياه معدنية كثيرة. إلا أنه ليس بين سكانها من يستطيع أن يحلل هذه المياه كيميائيًا ليعرفوا خصائصها الصحية، لذا فإنهم يستخدمونها فى الحمامات للاغتسال.

وتسقى الحدائق والبساتين والمحصولات الزراعية التى تحتاج إلى ماء بهذه المياه التى تتبقى من الحمامات والمياه الأخرى التى تنبع من الجهات الأخرى.

إن خصوبة أراضى قطعة الحسا وجودة مياهها تساعد كثيرا على نمو الأشجار والأغصان فالشجيرات الصغيرة التى تغرس تنمو فى ظرف أوقات قصيرة وتصبح أشجارا كبيرة. وتتضخم أشجار النخيل فيها بحيث لا يستطيع أن يحيط بجذعها عدة أشخاص حتى إن نباتات العدس والفلفل تصل إلى ضخامة أشجار الرّمان.

وتنبع أكثر أنهار الحسا من داخل الغدران فى اتساع مائة متر مربع وفى خمسة عشر باعًا فى العمق ثم تتفرع ويسقى الأهالى أراضيهم ومزروعاتهم بهذه المياه وهم يفتحون حولها قنوات قدر ما يريدون.

ولا يستطيع الإنسان أن يصف ما تضفى هذه المياه من جمال وزينة، وهى تمر من داخل البساتين والحدائق والحقول أو من حولها وهى تجرى براقة صافية فى صورة دائمة.

وعلى بعد بلدة (حفوف) بساعة منبع ماء يطلق عليه عين النجم، ولما كانت مياه هذا المنبع أكثر قوة وفى غاية العذوبة من جميع مياه المنابع الأخرى فأهلها يستغنون عن الحمامات.

والأشخاص الذين يشتكون من الأوجاع والآلام يشفون بإرادة الله بالاستدامة على الاستحمام بهذه المياه، وقد شاع هذا التداوى بين الأهالى.

وقد بُنى على هذا النبع قبة جميلة وأخذ تحت المبانى وجعلت على شكل الحمامات وذلك فى ظل الإرادة السلطانية السنية إذ أحسن إلى أهالى (حفوف).

والأراضى حول إقليم الحسا وسواحله منبسطة مستوية. ولما كان البحر لا يستطيع أن يجزر ويسحب المياه الفائضة فى حالة مد البحر وتظل مياه هنا وهناك فتتعفن المواد المختلطة بالمياه وتؤثر فى جودة الهواء وتغيره وتسبب علل الحمى والملاريا فتسوء صحة الأهالى فتذبل ألوان أهاليه وتصفر ويكثر فيهم من يصيبهم مرض الطحال.

وتقع **جزر البحرين** بين ٤٨ درجة وعشرين دقيقة فى الخط الطولى الشرقى وبين ٢٦ درجة وست دقائق فى خط العرضى الشمالى ومن هذه الجزر تستخرج أجود أنواع اللآلئ والدرر.

وعرض جزيرة البحرين فرسخان وطولها سبعة فراسخ جغرافية وفى وسطها وأطرافها أماكن مرتفعة.

ويوجد فى خليج البصرة وعلى سواحل الحسا غير جزيرة البحرين جزر آراد وتاروت والمنامة وتتبع إدارتها لقائم مقام نجد واسم جزيرة البحرين الآخر أوال.

ولما كانت أراضى إقليم الحسا منبتة، تنمو فى هذه القطعة المتسعة كل أنواع الفواكه والخضر والمزروعات المتنوعة الأخرى.

وأكثر مغروساته النخيل، كما ينبت فيه: القطن، والأرز، واللوز، والليمون، والرمان، والعنب، والتين، والقمح، والشعير، والذرة.

وإن كان يزرع فيه قصب السكر ولكنهم لا يعرفون طريقة زراعة هذا القصب ولا طريقة صنع السكر منه. وينسج فى تلك البلاد قماش صوفى يطلق عليه الكيلانى وتصنع منه أجمل العباءات والمشالح.

وكان سكان جزيرة البحرين القدماء من العماليق. وكانت قبيلتا جديس، وطسم قد انتشرتا إلى هذه الأماكن ثم استولى على البحرين الأزديون، وقد طرأ ضعف على العرب بعد حروب بخت نصر ظلت جزيرة العرب فى يد بعض القبائل المتفرقة وانتقلت إلى يد الفرس فى عهد أردشير بن بابك، وإن كان العرب خرجوا عن طاعة الفرس بعد موت أردشير، إلا أن شابور ذا الأكتاف انتصر على العرب وألحق البحرين بالبلاد الفارسية، وفى النهاية انتقلت إلى إدارة المناذرة الذين كانوا يحكمون فى الحيرة، وفى السنة السادسة من الهجرة أسلم بعض أهاليها وطلب بعض منهم أن يبقوا على دينهم وأن يعطوا الجزية، فعين العلاء بن الحضرمى واليًا عليها من قبل النبى ﷺ.

إخطار- فى بيان القبائل العربية الساكنة فى إقليم الحسا.

ولما كان أهالى الحسا مائلين للتحضر فقد سكن بعضهم فى القرى وسكن الآخرون فى المدن. وقد ذكر فيما سبق عددهم وطريقة معيشتهم كل فى مكانه

وسيذكر فيما يأتى الذين يعيشون فى حالة البداوة قبائلهم وعدد أفرادها ومواقع إقامتهم.

المُـرة:

تتكون قبيلة المرة، من ثلاثة آلاف نسمة، وتطوف هذه القبيلة دائما حول بلدة قطيف وجوارها.

بنو هاجر:

وإن كانت قبيلة بنى هاجر قبيلة مستقلة إلا أنها تشعبت من أصل قحطان. ويعيش هؤلاء أيضًا بجوار القطيف ويصل عدد أفرادها إلى أربعة آلاف.

بنو خالد:

يبلغ عدد أفراد قبيلة بنى خالد إلى عشرة آلاف ويقضى سبعة آلاف منهم حياتهم مرتحلين بين نجد وجبل (أيله) وفى الطعة المنسوبة للزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ فى الأطراف الغربية، كما يعيش الباقون جائلين فى أطراف بلدة الحسا.

استطراد:

تنقسم قبيلة بنى خالد إلى قسمين، ينتهى قسم منها إلى الصحابى الجليل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ والقسم الآخر ينتهى إلى أخى المشار إليه وأبناء عمه.

والقسمان من جماعة بنى مخزوم وبنو مخزوم من أعظم بطون قبيلة قريش.

وخالد ـ رضى الله عنه ـ ابن وليد بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، ويتصل نسبه هنا بنسب السلسلة الذهبية للنبى ﷺ.

وكان قائد الجيوش فى عهد أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهو قاتل مسيلمة الكذاب وممزق أهل الردة وفاتح بلاد نجد المتسعة.

وكان زمام إدارة بلاد نجد وإمارتها فى نهاية العصر الثانى فى يد أسرة تنتهى إلى أبناء عم خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ من قبيلة بنى مخزوم، ثم انتقلت إدارتها إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن منيع بن خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

وظلت فى يد هذه السلالة السليلة إلى ظهور سعود بن عبد العزيز نسلا بعد نسل وأظهرت هذه الأسرة الهمة والنشاط فى حسن إدارة هذه البلاد، وفق عقيدة أهل السنة والجماعة وكانوا عامة من مذهب أهل السنة والجماعة واشتهروا بين القبائل باسم آل عريعر وكانوا محترمين ومقدرين بين أهالى نجد وانتزع فيما بعد نجد سعود بن عبد العزيز.

آل عريعر:

بطن آل عريعر أبناء عم أمراء بنى خالد الذين يعيشون بين برية الشام وبلدة حماة، لأن أمراء بنى خالد الذين يستوطنون بين برية الشام وحماه ويشتهرون ويعرفون بـ آل عبد القادر. وعبد القادر هذا ناصر بن العاصى بن مهنا بن سليمان بن مهنا بن محمد بن فارس ابن عبد الكريم بن مهنا[1] بن فضل بن محمد بن عبد الرحمن وهنا اللقاء بسلالة آل عريعر. وأبو عبد الرحمن المذكور هو خالد بن الوليد رضى الله عنه.

وانقسمت أسرة ناصر إلى قسمين: أحدهما بطن مراد بن جابر بن ناصر.

وكريمة ابن جابر هى زوجة السيد حسين برهان الدين الصيادى الرفاعى زيانة الخالدية.

وزيانة الخالدية مدفونة مع ابنها السيد على الحزام بن سيد حسين برهان الدين فى قضاء معرة النعمان وفى قرية حسين وضريحها المشهور من مزارات الموحدين.

والقسم الذى انفصل عن ابن ناصر والذى ينحصر فى أسرتهم إمارة عشائر قطعة الشام انقطعت الإمارة عند مراد بن جابر السالف الذكر.

(١) مهنا هذا كان أميراً ورئيس القبائل العربية التى تستوطن فى الشام وأطرافه.

القسم الثانى لأسرة ناصر هو عبد القادر الشهير أخو جابر وأمير قبائل بنى خالد. وابن الأمير عبد القادر دندن وابنه محمد وأبناء محمد الحاج درويش وعبد الرازق، وأخلاف هؤلاء وأحفادهم مازالوا إلى اليوم يتولون رياسة قبائل بنى خالد وإمارتها.

وقبائل بنى خالد التى سكنت برية الشام تنقسم إلى سبعة أبطن أحد هذه البطون هم بنو خالد الذين فى قطعة زرقا بالقرب من دمشق وعدد أفرادهم أربعة آلاف نسمة، والبطون الستة الأخرى التى تستكن فى بوادى حمص وحماة ومعرة النعمان وجسر وثغور يبلغ عدد أفرادها ثمانية أو عشرة آلاف، وبعض أفراد هذه القبائل تسكن البادية ولكن أكثرها يسكنون فى القرى وهم من أصحاب الزراعة والفلاحة منذ قديم .

منطقة نجد وما تشتمل عليه من البلاد:

من أعظم أقسام جزيرة العرب قطعة نجد المتسعة.

وتصل حدود هذه القطعة الضخمة شمالاً إلى بر الشام وشرقًا إلى عراق العرب والحسا وجنوبًا إلى الأحقاف واليمامة وغربًا إلى حدود الحجاز.

ونجد من حيث الأراضى أشهر بلاد الجزيرة العربية وأجملها وتقع بين ٣٩ درجة إلى ٤٦ درجة من الخط الطولى الشرقى. وبين ١٩ درجة إلى ٣٠ درجة من الخط العرضى الشمالى وتنقسم إلى قسمين باسمى نجد الحجاز ونجد عارض.

ويقع نجد الحجاز فى الطرف الشرقى من البلاد الحجازية كما أن نجد عارض يقع الجهة الشمالية من البلاد الحجازية والبلاد الآتية أسماؤها من ضمن نواحى نجد الحجاز وهى: عارض، يمامة، شعرا، خرق، ضرية، أفلاج، هيلك، وادى الدواسير، رس، وادى السرا، سلايل، نيرين، مرثد، بلاد الوشم، كرموسة، بلاد الفصم، تمن، سدير، بشهر، درعية، ربطة وعيينة.

وللخطة المذكورة ثلاثمائة وأربعون قرية ومدينة، وبناء على حساب المدققين فإنها تشمل أكثر من مائة وأربعين ألف من البساتين والحدائق، وأن عدد سكانها

يتجاوز مليون نسمة، كما أن فى نجد عارض ثلاثة آلاف قرية، وأن هذه القرى ظلت تحت حكم شيوخها ولم تخضع لأية حكومة بناء على بعض الروايات.

شعـراء:

تقع ناحية شعراء على خمس مراحل من مكة المكرمة وناحية ضرية فى الجهة الشمالية لشعراء، وهيلك بالجانب الشرقى على بعد ثمانى مراحل من شعرا، وفى الجهة الغربية من اليمامة.

وتشمل ناحية شعرا بعض الآبار والمزارع وضرية على غدير كبير واليمامة على بعض حدائق النخيل وكثير من المزارع.

تمـن:

تقع تمن فى الجهة الجنوبية من كرموسة، وناحية كرموسة على الجهة الجنوبية من ضرية ولناحية تمن كثير من أشجار النخيل، ولكرموسة مياه جارية من الغرب إلى الشرق ولناحية الرس بئر مشهورة. ولسكان ناحية الرس آبار أكثر بالنسبة للنواحى الأخرى.

وتبدأ أراضى نجد العارض من مكان بعيد إلى الحجاز بمسافة ثلاث مراحل وتمتد إلى الجهة الشمالية وهو فى الأصل جبل يشتهر بجبل العارض ولهذا الجبل مدخلان باسمى الدرعية والعينية.

والجبل المشهور بسرين فى هذه الأراضى ونهر وادى بنى حنيفة فوق الجبل المذكور.

وفى وادى بنى حنيفة مياه جارية وحدائق نخيل وأشجار أخرى والدرعية منشأ كثير من الملحدين مثل القرامطة ومسيلمة الكذاب والدرعية فوق جبل سرين السالف الذكر كما أن مدينة الحسا على الطريق المشهور ممر القوافل والحجاج.

وينمو بجانب مدينة الحسا وحواليها أشجار الخوخ البرية وحدائق العنب والنخيل فى واد كثير التعرج.

ومدينة **ملهم** المشهورة بالعنب والخوخ والبلح وقصب السكر على بعد ست مراحل من الحسا، كما أن مدينة مقرن التى تحتوى على النخيل هنا وهناك والمزارع وحصنا ترابيا يقع على الجهة الجنوبية من اليمامة وهذه المدينة أقرب المدن إلى بلدة الدرعية.

والـ **(رياض)** التى أصبحت مقر إدارة وحكومة عبارة عن القرى الكثيرة والمدن وهى قريبة من الحسا.

وناحية **مزج** فى حدود اليمامة وبلاد القصيم فى آخر الصحراء الرملية التى تسمى وادى السرا ولا توجد سواء أكانت فى ناحية مزج أو القصيم النخيل أو الأشجار. وناحية مزج صحراء رملية مستوية تمتد خمس عشرة مرحلة وبما أنه ليس لها مياه جارية تروى مزروعاتها بالمياه التى تستخرج من الآبار بواسطة السواقى.

وفى قطعة نجد نواح كثيرة ومدن وقرى وجبال مثل جبل شمر وغيره ولما كانت أكثر أراضيها رملية مستوية وليس فى كل أراضيها مياه جارية. فإن مزروعات مثل هذه الأراضى تسقى بمياه الأمطار كما أن حدائقها تسقى من الماء المستخرج من الآبار.

والخيول العربية الأصيلة وأجود أنواع الهجين العمانى تربى فى هذه القطعة، كما أن الجمال العادية تتكاثر هناك بسرعة.

وبما أن أهالى البلاد المجاورة مضطرون لشراء ما يحتاجون إليه من الجمال من نجد لذا أطلق عليها العرب القدماء أم الإبل.

ومقاطعة نجد المرتبطة بالبصرة ليست القطعة الوسيعة التى تشمل المدن والقرى ولكن هذه المقاطعة بعض الأماكن التى فصلت عن بلاد البحرين.

فى بيان القبائل البدوية الساكنة فى منطقة نجد:

عَنَـزة:

وإن كان عربان قبيلة عنزة تتجول فى داخل القطعة الحجازية ولكن أكثرها تعيش فى الجهة الشمالية من قطعة نجد.

الذويبى:

وقبائل العربان من أفرع قبيلة حرب الحجازية، الذويبى، الفرم، بنى سالم، بنى نخيض تسكن بين الأماكن الواقعة بين المدينة المنورة وبلاد القصيم، ويبلغ عددهم إلى أربعة عشر ألف شخص تقريبًا.

عجمان:

وإن كان منازل قبيلة عجمان ومأواها الأصلى المكان المسمى بوادى نجران إلا أنها تمضى أوقاتها بين بلدة الرياض والرملة وأراضيها. وعربان هذه القبيلة فى منتهى الشجاعة ومحاربون من الطراز الأول ويقرب عددهم من ستة آلاف نسمة.

قحطان:

انقسم أفراد قبيلة قحطان إلى قسمين: ويسكن قسم منهم فى الأماكن الممتدة من رياض إلى زنبة والقسم الآخر فى بلدة حوطة وجوارها. ويبلغ عدد أفراد هذه القبيلة ثلاثين ألف نسمة.

وأقدم القبائل المذكورة بنو قحطان وأكثر القبائل العربية التى ذكرت تتفرع من هذه القبيلة القديمة.

وإحدى شعب القبيلة المذكورة فى داخل حدود عسير وهذه الشعبة انقسمت إلى أربع قبائل كبيرة التى تعرف بأسماء قحطان الشام، قحطان اليمن، رجال الماء، المتصدقة بِنُفُوسِهَا.

الدواسر:

بما أن قبيلة الدواسر تسكن فى محل يسمى وادى الدواسر فى الجهة الجنوبية من الرياض سموا بدواسر ويبلغ عدد أفرادها خمسة عشر ألفًا.

فى بيان القبائل الخاضعة لإدارة شيخ جبل شمر:

جبل شمر:

جبل شمر مكان واقع على الشمال الشرقى من المدينة المنورة على بعد ثمانية مراحل.

وهذا المكان تحت إدارة أسرة ابن رشيد وابن رشيد تحت إمرة وإدارة أمير نجد وأكثر مدن شمر شهرة وعمرانًا مدينة حائل التى يبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة، وقد اتخذها حاكم جبل شمر مقرًا لإقامته.

وفى جبل شمر غير حائل أربعون قرية صغيرة وكبيرة. وإن كان عدد سكان هذه القرى يبلغ ثمانين ألفا إلا أن القبائل العربانية التى تحت إمرة شيخ جبل شمر تبلغ عشرين ألفًا وهى قبيلة شمر وما يزال بعض منها يسكن تحت الخيم.

ولما كان المقال الذى كتبه السيد فضل باشا عن الجزيرة العربية يحتوى على بعض المعلومات النافعة فرأينا أن ندرجه هنا بأمر الباشا المشار إليه.

مقال فضل باشا فى وصف جزيرة العرب:

مدن مكة المكرمة وصنعاء ودمشق والقاهرة عروش البلاد العربية. وبدخول هذه المدن تحت إدارة الدولة العلية دخلت تحت عداد الممالك العثمانية. ولما كانت الجزيرة العربية خالية من السلاطين والملوك فمشايخ العرب يدعون فى المنابر للسلطنة العثمانية السنية. وتعرف ذلك الدول الأخرى أيضًا.

وعُين هؤلاء المشايخ بأمر السلطان أو أوامر الولاة العظام. وهذه الأوامر محفوظة فى قلم الديوان العالى السلطانى ومن المعلوم لدى الواقفين على الأمور أن ما يحدث بين القبائل العربية من الحروب ومن الثورات والعلاقات مع الدول الأجنبية لا يخرجها من تحت تبعية الدولة العثمانية. ووسيلة معيشة أكثر العرب الذين يعيشون على السواحل هى التجارة بحرًا، وسيد السمك واللؤلؤ والمرجان والتجارة البحرية وسيلة معيشة ما يقرب من أربعين ألف سفينة، وحمولة أكبرها عشرة آلاف كيلو وأصغرها تستوعب ألف كيلو. والسفن الخاصة بغواصى اللؤلؤ والصدف والمرجان وصيادى السمك خارج هذا الحساب، وأعلام أكثر تلك السفن حمراء وسبب ذلك عدم معرفتهم صفة علم الدولة العلية، وطواقم تلك السفن من الربان، والدليل، والملاحين والغواصين والآخرين كلهم من العرب. ورجال السفن التى تبحر فى البحر بين السويس والبصرة يتجاوز عددهم خمسين ألف شخص. وتقطع هذه المسافة فى ظرف خمسة عشر يومًا.

ومن المؤكد أن إخضاع الممالك التى تحت إدارة الشيوخ للنظام وحسن إدارة مثل هذه البلاد تحت الحكومة السنية سيحقق فوائد معنوية ومادية كثيرة. وإذا تعرضت جزيرة العرب لأى تدخل أجنبى فمن الواجب حمايتها من قبل الدولة السنية. لأن اختيار السكوت يبطل حق التصرف. وسواحل البحر الأحمر وجزره تابعة للدولة العلية والسواحل المذكورة شرقا وغربا قسمان:

القسم الأول:

والجهة الشرقية لجزيرة العرب تمتد من السويس إلى باب المندب ومن باب المندب إلى نقطة قصير. ومن جهة أفريقيا الغربية كذلك من السويس إلى باب المندب ومن باب المندب إلى رأس عسير.

وموانى الجزيرة الشرقية هى: السويس، الوجه، ينبع البحر، جدة، الليث، قنفذة، اللحية، حديدة، المخا وموانيها الغربية السويس، قصير، سواكن، مصوع، عصاب.

القسم الثانى:

والموانى الموجودة من خارج باب المندب فى الجهة الشرقية من سواحل البحر الأحمر هى: عدن وباب المندب، وفى الجهة الشرقية من سواحل البحر الأحمر هى: عدن، حسن غراب، بروم، مكلا، شحر ورأس قصير وفى الجهة الغربية من البحر الأحمر هى: زيلع، بربرة، والموانى الأخرى إلى رأس عسير. وسواحل البحر الأحمر فى إفريقيا الغربية تحت إدارة الخديوية المصرية وكل سكانها مسلمون. وأجناسهم من السودانيين والدناقل والصوماليين. وفى الموانى سفن لا بأس بها. وما فى الداخل برًا أجناس مختلفة من الناس وأديانهم متعددة. ولكن بلاد الصومال مرتبطة بالدولة وتحت إدارة الخديوية المصرية وعدد سكانها أربعة ملايين ولها موانى فى المحيط الهندى وكلهم مسلمون وفيهم أمراء. وفى الصومال خيول كثيرة ويباع الحصان واحد بليرة والمسافة من باب المندب إلى عدن برًا أربعة أيام. ومن عدن إلى شحر أربعة عشر يومًا.

وفى السواحل موانى عديدة، وهى تحت إدارة بعض مشايخ العرب. والمدينة الواحدة التى تحت الإدارة الانجليزية هى عدن.

والمسافة من شحر إلى قصير ثلاثة أيام والجهة الساحلية تحت إدارة شيخ يسمى (قعيطى)، ومن البر إلى الداخل، ومن بلاد حضرموت تحت إدارة الشيخ منصور الكثيرى، ومن قصير إلى محل يسمى دمقوط مسافة عشرة أيام وفى الساحل العديد من الموانى وهى تحت إدارة بعض مشايخ العرب. ومن دمقوط إلى محل يسمى (حاسك) مسافة خمسة عشر يومًا ويقال لها ظفار، وهى تحت إدارة الأمير السيد فضل علوى باشا. والمسافة من حاسك إلى مسقط تقدر بخمسة وعشرين يومًا وفى الساحل عدة موانئ تحت إدارة بعض مشايخ العرب.

ومنطقة مسقط تحت إدارة أميرها ومساحتها المربعة مسافة خمسة أيام. ومن اليابسة إلى الداخل يتبع أمير نجد، والسواحل إلى الحسا فى يد بعض مشايخ العرب ومن الحسا إلى البصرة فى يد الدولة العلية مباشرة. والساحل الغربى لخليج البصرة من الجزيرة العربية فى يد الدولة العلية والساحل الشرقى يعرف ببر فارس وهو بين الدولتين. وإن كان هذا الخليج مشتركًا بين الدولتين ومن هنا يلزم أن تكون الجزر القريبة من الساحل الغربى للدولة العلية والقريبة من الساحل الشرقى لدولة الإيران إلا أن الخليج يتبع الدولة العلية دون اشتراك أحد ومن هنا يجب أن تتبع جميع الجزر الدولة العلية.

إخطار ـ إذا ما تأملنا بعض الخرائط الأوربية ففى الألوان والإشارات التى تبين شكل مربوطية بعض الملحقات ارتكبت أخطاء فاحشة. انتهى المقال.

عادات العرب وأيامهم

العادات والمذاهب القديمة لسكان جزيرة العرب:

أولا: العادات القديمة:

لم يكن فى عهد عمرو بن لحى - الذى أدخل إلى الجزيرة العربية عبادة الأصنام - للعقائد الباطلة والعادات الفاسدة حد ولا نهاية فى الجزيرة العربية.

إطلاق الحيوانات فى المراعى وتركها حرة عد ذلك ثوابا، وعد استخدام الحيوانات التى أطلق سراحها حراما، إسقاط ميراث العبد المعتق، وإطلاق الناقة التى تلد ذكراً فى خامس مرة بعد قطع أذنيها فى الصحراء، وعدم استخدام النياق التى أطلقت مرة أخرى، وعدم أكل لحم ولبن وزبادى وزبدة مثل هذه الحيوانات، كل هذه العادات والبدع مما اخترعه عمرو بن لحى بالذات[1].

وكان الذين قبلوا رياسة هذا الرجل والذين أتوا من بعده من الجاهليين يطلقون سراح الناقة التى ولدت فى خامس مرة ذكراً شاقين أذن الناقة كعلامة مميزة، ويتركونها فى المراعى ويسمونها (بحيرة)[2] ولا يركبونها ولا يشربون لبنها بعد الحلب.

وإذا ما مرض شخص، أو غاب، كانوا ينذرون بتحرير ناقة قائلين «إذا شفى مريض وأبل من مرضه فلتكن ناقتى هذه حرة».

وإذا ما تحققت رغبتهم يسمون الناقة التى نذروا إطلاقها سائبة[3] فيشقون أذنها

(١) من أراد الاستزادة فليرجع إلى تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة. من كتب التفسير.

(٢) من أولاد الناقة. السائبة فى الأنثى التى تلد فى المرة الخامسة ذكرا يسمونها «بحيرة».

(٣) سائبة اسم الناقة التى ولدت عشر مرات إناثا.

مثل (بحيرة) ويتركونها فى المراعى. بحيث لا يجوز بعد ذلك لأى شخص أن ينتفع بهذه الناقة.

وإذا ولدت نعجة فى البطن السابع ذكرًا فيذبحون هذا الحمل تقربًا لأصنامهم التى يعبدونها ثم يأكلون لحمه أما إذا كانت أنثى يتركونها لحالها.

وإذا كانت هذه النعجة ولدت توأما ذكرًا وأنثى، يسمون الذكر وصيلة[1] فيهدونه لأخته الأنثى ولا يذبحونه. وكانوا يضربون مثلاً لهذه الحالة فيقولون: «وصلت الأنثى أخاها».

وإذا ما ولدت ناقة ما عشرة صغار يفقئون إحدى عينيها ويمنعون ركوبها ويسمونها حام[2] وكى يبينوا أنها قد اكتسبت صلاحية الرعى من أى حقل وأن تشرب من الماء الذى ترغب فيه، فينزعون لجامها ويتركونها ويعتقدون أن استخدامها فى الحمل أو الركوب حرام.

وكل هذه العادات الباطلة من اختراع عمرو بن لحى الذى بذل جهوده وعمل على ارتداد السبع قبائل الكبيرة عن دين واجب التبجيل سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه صلوات الجليل ـ وعلى اعتناق عبادة الأوثان الدين الجاهلى الباطل.

وقدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ صيحة هذه البدع التى أراد بها عمرو بن لحى أن يحمل القبائل العربية إلى عبادة الأوثان إذ قال الله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة/ ١٠٣].

وكان فى زمن جاهلية العرب من العادات مثل «وأد البنات، الوسم، التعمية، التفقية، مداواة العسر، ضرب الثور على النقر، بكاء المقتولين، رمى السن، خضاب النحر، نصب الراية، جز النواصى، الالتفات، النهق، الاعتقاد، السلوان ويروى أن هذه العادات أيضًا من اختراعات عمرو بن لحى.

(١) يقال لحمل الذكر للنعجة التى ولدت فى المرة السابعة حملين أحدهما ذكر والآخر أنثى «وصيلة».
(٢) الناقة التى فقئت إحدى عينيها حتى لا تركب.

وأد البنـات:

عادة دفن المولودة الحديثة حية. إذا ما ولدت امرأة أى رجل بنتًا فى الوقت الجاهلى كان الرجل يأخذ هذه الطفلة من شدة خجله ويدفنها حية، ويغضب من الذين يخبرونه بولادة بنت له. ويغتاظ منهم.

وكان أهل مكة قد تعودوا على أن يدفنوا بناتهم فى جبل يقال له «أبو دلامة» فأقام جد الشاعر الشهير الفرزدق وهو «صعصعة» فوق هذا الجبل وحرص على أن يشترى البنات البريئات اللاتى يأتى بهن أهل مكة لدفنهن فى الجبل بأثمان باهظة.

الوسـم:

عادة ربط جمل الشخص الذى يموت بجانب قبره، فبناء على العقيدة الجاهلية كانوا يربطون جمل الذى توفى بجانب قبره معتقدين أنه سيركبه حينما يقوم من قبره، وكان الحيوان المُسكين يظل بجانب قبره إلى أن ينفق.

وكانت هذه العادة محصورة فى أغنياء القبائل. وكل من بلغ عدد جماله ألفا كان يختار من بينها جملا ويفقأ عينه وإذا ما بلغ عدد جماله ألفين يفقأ عينيه الاثنين. ويعميه وكانوا يعتقدون أن مثل هذا التصرف ينجى بقية الجمال من إصابة العين.

التعمية والتفقية: من فقأ عين الجمل احترازًا من الحسد.

مداواة العسر: عادة وسم جمل سليم.

وكان فى العصور الجاهلية مرض يشبه ممرض الجرب. عندما يظهر هذا المرض كانوا يَسِمُون الجمال ويعتقدون بأن هذا الوسم ينقذ الجمال من الإصابة بالمرض المذكور ويُسَمّون هذا مداواة العسر.

ضرب الثور على النفر: عادة ضرب الثور النافر.

وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن طائفة الجن تركب الثيران وتمنعها من شرب الماء، لذلك كانوا يضربون الثيران النافرة عند شرب الماء.

بكاء المقتولين: عادة البكاء لمن يقتلون.

كان من العادات الجاهلية امتناع زوجات المقتولين عن البكاء قبل أن يؤخذ بثأر أزواجهم. ويبكين وقتما يؤخذ ثأر أزواجهن.

رمى السن: وهى عادة جاهلية.

وكان الأطفال فى الجاهلية فى أوان تبديل أسنانهم يمسكون بالسن المخلوعة بين أصابع إبهامهم وسبابتهم ويرمونها نحو شعاع الشمس قائلين»: «بدلها بأجمل منها» وكانوا يعتقدون أنها إذا رميت كذلك فسوف تخرج السن مستوية وأن الأطفال لن يعانوا من وجع الأسنان طوال عمرهم.

خضاب النحر: عادة تلطيخ النحر بالدماء.

وإذا سبق أحد الخيول، الخيول الأخرى فى أثناء الصيد ووصل إلى الفريسة قبلها كان تلطيخ نحر ذلك الخيل بدماء الفريسة التى قبض عليها من جملة آداب عرب الجاهلية.

نصب الراية: عادة رفع الأعلام أمام المنازل:

كان أهل الجاهلية ينصبون أمام أبواب منازلهم راية حتى تعرف.

جز النواصى: عادة تخطيط الجباه.

عندما كانت القبائل العربية تحارب بعضها البعض وتؤخذ أسرى فإذا أرادوا أن يحسنوا للأسير كانوا يخطون خطًا على ناصيته ويخلون سبيله.

الالتفات: عادة ألا ينظر من يخرج للسفر خلفه وقت السفر.

كان العرب يزعمون فى الجاهلية أن أى واحد يخرج للسفر ويلتفت خلفه لن يعود من ذلك السفر.

النهق: عادة النهق مثل الحمير.

كان يعتقد عرب الجاهلية أنهم إذا ما نهقوا مثل الحمير عند مدخل قرية

مصابة بالمرض لن تصيبهم العلة، لذلك عندما يدخلون مثل هذه القرى يدخلون ناهقين.

السلوان: اسم نوع من الخرز.

فالمتبلون بمرض العشق إذا ما نثروا فوق الماء الخرز المسمى بسلوان وشربوا من هذا الماء يستطيعون أن يتحملوا المرض مهما كان شديداً.

إن سوء أحوال أهل الجاهلية ليدل على بطلان عقائدهم، وهناك حكايات غريبة وعجيبة ولكن حجم هذا الكتاب لا يكفى لاستيعابها؛ لذا اكتفينا بهذا القدر.

المذهب القديم:

كان جميع سكان الجزيرة العربية قاطبة قد اتبعوا دين وملة خليل الله إبراهيم - عليه السلام - ولكن لشدة الأسف أصبحوا مع مرور الزمن أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولم يَبْقَ كتاب يصدق أركان ذلك الدين الحنيف وشرائطه. ولم يبق بينهم من يلجئون إليه عندما يختلفون فى مسألة ما لحل مشكلاتهم من أرباب الشريعة والاجتهاد، فاشتدت جهالتهم بالتدريج فانتهوا إلى الشرك والزندقة، واستولت عبادة الأصنام بناء على رأى عمرو بن لحى وتصويبه على مدينة مكة المعظمة قبل الهجرة النبوية بخمسمائة عام، أو على قول بثلاثمائة وخمس عشرة سنة، وأخذوا ينكبون على عبادة الأصنام التى صنعوها بأيديهم.

وقد ظهر بينهم بعض السحر والكهنة وأخذوا يخبرونهم عن الغيبيات رجمًا بالغيب ولما صادف أنه تحقق بعض ما أخبروه فانخدعوا بهم، وأخذوا يستعينون فى حل مسائل دينهم ومشكلات حياتهم بهاتين الطائفتين المضلتين وأخذوا يتلقون قبولاً حسنًا كل ما يقولون بل تسابقوا فى مضمار الضلال.

وأراد قصى بن كلاب بن مرة - وهو أحد أجداد النبى ﷺ - قبل الهجرة النبوية بمائتى سنة أن يعيد أهل مكة إلى دين خليل الله، وقد انتزع رياسة مكة المكرمة واستولى عليها، إلا أنه لم يوفق فى ذلك؛ لأن العقائد الباطلة التى

انتشرت فى عهد عمرو بن لحى، كانت قد سَرَتْ فى عروق أهل مكة كما تجرى الدماء الفاسدة وتمكنت من أعصابهم.

وكان أهل الجاهلية الذين عاشوا فى عهد قصى بن كلاب فى حالة بداوة كالقبائل العربانية، وكان أكثرهم يعتنقون عبادة الأصنام والأوثان، وكان لكل قبيلة صنمها الخاص بها إلا أنهم من حيث العقيدة منقسمين إلى عدة فرق.

١- الفرقة الأولى ـ كانت تنكر الخالق والبعث وتحاول أن تثبت أن الطبيعة تحيى والدهر يفنى.

٢- الفرقة الثانية ـ كانت تعترف بالخالق وابتداء الخلق ولكنها تنكر البعث.

٣- الفرقة الثالثة ـ كانت تعترف بالخالق وابتداء الخلق ونوعًا من البعث ثم أنكروا ذلك وعبدوا الأوثان ظانين أنها ستكون شفعاء لهم لدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكانوا يحجون بالطواف حول الأصنام ويتقربون لها بذبح الذبائح كما أنهم يحرمون ويتحللون من الإحرام.

وكان بينهم من يعبد النجوم والكواكب مثل الآشوريين، ومن يعبدون الحيوانات مثل المصريين ومن يعبد الملائكة والجن، وكان منهم من انحرف لمذهب من يعتقد فى تناسخ الأرواح.

وكان الذين يعتقدون فى تناسخ الأرواح يظنون أن أجزاء أجسام الذين يتوفون تتحد وأنه يتكون من الأجزاء التى تجمعت فى كل مائة سنة طائر، والطائر الذى يتكون من كل جنازة سيأتى إلى رأس القبر الذى تدفن فيه تلك الجنازة وكان بينهم من اعتنقوا اليهودية والنصرانية.

إلا أنهم كانوا يجتنبون الزواج بأخواتهم وأمهاتهم واستفراشهن والجمع بين أختين فى الزواج.

وكانوا يستنكرون ويستقبحون من يتزوج من زوجات آبائهم، ويعيبون عليهم ارتكاب مثل هذه الأعمال الآثمة.

وكانوا يعدون المضمضة والاستنشاق والاستنجاء واستعمال المسواك وقص

الأظافر واستخدام الموسى من عاداتهم القديمة، وكانوا يعنون بإجراء هذه الأمور أعظم عناية.

كما كان مما يرغبون فيه من عاداتهم، الاغتسال من الجنابة، الصوم، الحج وزيارة بيت الله، ولبس الإحرام والذهاب للعمرة، وطواف كعبة الله والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف على المواقف ورمى الجمار، وقطع يد السارق، والختان، وشنق قطاع الطرق، وترك الجدال والحرب فى الأشهر الحرم، وترك الجدال والحرب فى الأشهر الحرم، وغسل الجنازات وتكفينها والصلاة عليها، والوفاء بالعهد، وقد رفضت الشريعة الغراء الإسلامية من هذه العادات مالا يتفق مع مبادئ الإسلام.

صلاة الجنازة:

صلاة جنازة العهد الجاهلى كانت صلاة غريبة. كانت الجنازة توضع على المصلى، ويتقدم وليها فيذكر محاسن الميت واحدة تلو الأخرى وما الحسنات التى قدمها الميت للآخرين يذكر ذلك بالتفصيل ويعدده ثم يسكت بعد ما يقول «عليك رحمة الله» هذه هى ما يطلق عليه أهل الجاهلية صلاة الجنازة.

وظلت هذه الضلالة إلى أن أشرقت الأنوار المحمدية وسطعت فوق الآفاق وانتشرت إلى أقطار العالم الأربعة فزال ظلام الكفر والجهالة من الجزيرة العربية واعترف الكل بوحدانية الله تعالى، وانتشرت أضواء شموس سموات الحقيقة الإسلامية فى جميع أنحاء العالم. وظلت الأرض والزمان فى داخل نور الوحدانية الإسلامية.

إخطار:

وحينما عممت القوانين والنظم المبسوطة على القبائل البدوية وطبقت أحكامها فى ذلك الوقت انقسمت القبائل العربية إلى القبائل الأخرى الصغيرة وعند اللزوم كان شيخ القبيلة الكبيرة يجمع بعض المسنين ليستشيرهم فى الأمور التى تحتاج للحل.

وقد جال بعض الراغبين فى الاطلاع على أحكام القوانين والنظم التى وضعها مشايخ العرب المحترمين قبل هذه السبعة أو الثمانية قرون، فى أكثر أجزاء الجزيرة العربية وابتدروا فى نشر ما كتبوه من الرسائل وكتب السياحة، ولكن فهم مما كتبوه أنهم لم يستطيعوا أن يطلعوا على القوانين العربية كما يجب ومن هنا وصلت معرفة أصول القوانين العربية تلك لدرجة الوجوب للذين يريدون أن يسيروا فى الجزيرة العربية سواء أكان بحكم وظائفهم أم لمحض المشاهدة والسياحة، لأجل ذلك كتب كاتب الدائرة الحكومية للمدينة المنورة على موسى أفندى رسالة باللغة العربية بتشويق من تشجيع الدكتور «رائف» أفندى من موظفى إدارة صحة الولاية الحجازية والذى أقام عدة سنوات فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد وصلتنى نسخة من تلك الرسالة بواسطة رائف أفندى المشار إليه ومن هنا رأيت إدراج بعض الفقرات منها فى هذا الفصل.

ولما كان على موسى أفندى منذ سنين كثيرة يتولى رياسة سكرتارية القسم العربى للدائرة الحكومية فى المدينة المنورة كما استخدم فى قسم الترجمة للعربان أصبح مُطَّلعا على العادات الجارية والأطوار والقوانين بين العربان وما أدرجه فى رسالته من المواد هى نفس القوانين والأنظمة التى بين العربان وقد صدق على ذلك من يعرفون القوانين العريانية وأهالى الحرمين الشريفين موقعين على ذلك.

النظم والقوانين الجديدة عند العرب كا
(الخمسة، والسمية، والعوانى، والمنن، والمجبودة)

الخمسة، والسمية:

يطلق على اتصال شخص بالآخر بنسب حتى الدرجة الخامسة والرابعة والثالثة خمسة، والطوائف التى يتصل نسبها بعد الجد الخامس يطلق عليهم «سمية».

إن أفراد طائفة السمية يوردون أسماءهم بإضافة اسم آخر مخلص «حتى يضيفوا لاسم جدهم السادس شهرة وليضيفوا لنسبهم شرفًا ومكانة.

مثلا إن أحدًا من العربان المسمى بـ «عويضة» يسمى ابنه باسم سمية وعويضة وذلك ليبين أن ابنه هذا وصل للبطن السادس، مثلاً إذا كان اسم ابن عويضة الرابع «حميد بن حمدان بن حمود بن حمد» فحميد يعد من «السمية».

ويمكن أن يكون تحت السمية سميات أخرى متعددة. أى يمكن أن يكون لجد إحدى السميات أولاد متعددة ولهؤلاء الأولاد أطفال كثيرون فيكون هؤلاء قد كونوا سميات كثيرة متعددة مشهورة بأسمائهم.

مثلاً إذا فرض أن لعويضة ابنان وهما «سالم، وحامد» وإذا كان كل من سالم وحامد كثير الأولاد فيعتبرون هؤلاء من سمية عويضة وينقسمون إلى سميتى سالم وحامد. ولكن بما أن سالم وحامد قد تفرعا من سمية عويضة يقال لهما سمية عويضة أيضًا.

واختراع القبائل العربانية مثل هذه الأشياء وعادات «خمسة، وسمية» وقبولهم ذلك بسبب الحصول على حقوقهم من أعدائهم بسهولة، مثلاً إذا ما قتل أحد من عربان القبائل أو ضرب أو نهبت أمواله وممتلكاته، وإذا لم يستطع المضروب

القبض على الفاعل الأصلى فإنه إذا قبض على خمسة متفرع من جده الخامس أى إذا قبض على أى واحد من أبناء الفاعل الأصلى يأخذ حقه منه ويستوفيه. والموظفون فى الحكومة يعملون وفقًا لهذا القانون فى زماننا.

ويعود سبب اتباع الحكومة للقوانين العربانية إغارة العربان على أبناء السبيل والحجاج والزوار ونهب أموالهم ولا سيما الغرباء، والتجار يتعرضون من جراء هجماتهم لخسائر عظيمة.

وإذا ما قتل أحد العربان واحدًا من أبناء السبيل فى أى وقت كان أو نهب وسلب أموال التجار والمسافرين يهرب إلى الصحارى والجبال حتى لا يقبض عليه ويختفى. وتحاول الحكومة أن تقبض على الجانى لتستوفى حقوق المجنى عليه وتتعرض لمشكلات كثيرة فى سبيل ذلك وفى النهاية تفشل. وبناء على ذلك لجأ عقلاء المدينة المنورة لاستيفاء حقوق الناس وفقًا للقوانين والنظم التى كانت مرعية بين العربان قبل هذا بثلاثة قرون أو خمسة وعملوا على تعديل وإصلاح ما كان صالحًا للقبول، وقبلت الحكومة أيضًا بعد إصلاح بعض أحكامها ليتسنَّى لها العمل بهذه القوانين.

وإحدى المسائل التى قبلت من قبل عقلاء أهل المدينة وعُدِّلت مسألة «الدم والمال فى الخمسة» التى يراعى حكمها بين القبائل البدوية.

وإن هيئة تعديل القوانين العربانية التى تكونت مقدمًا من سادة الأهالى صححت الفقرة القانونية التى تكفل البحث عن القاتل والسارق الأصلى أو عن خمستهما بفقرة «الدم فى الخمسة والمال فى السمية» أى تقرر أن تؤخذ دية دم المقتول من قبل الورثة من الذين تسلسلوا من جد القاتل الخامس مثل العم وأبناء العم كما أن المال المسروق يؤخذ من خمسة السارق ومن سميته أى من أعمامه الذين تشعبوا من جده الخامس والسادس وأبناء عمه، وعملت الهيئة على أن تجرى الأمور الخاصة بالحقوق على هذه الصورة وأخذت موافقة العربان على هذا التغيير وتصديقهم. وبهذا قدموا أعظم خدمة بالنسبة للذين سيأتون من بعدهم.

ويستعمل عربان القبائل قانونى الخمسة والسمية فى بعض الأحكام الأخرى. مثلاً، إذا ما فرض أن أحد من سمية قبيلة ما تسلط على شخص من عشيرة أخرى بالقتل أو النهب لأموال فحكم القانون الخاص بحالته يجرى فى حقه وحق خمسته.

إذا كانت الحالة متعلقة بقتل النفس وفر القاتل دون أن يقبض عليه فأقارب المقتول الذين لهم حق استيفاء القصاص وخمسته يقبضون على أى واحد من خمسة القاتل، ويجرون عليه نفس الحكم الذى كان يجرى على القاتل وإذا كانت الحالة خاصة بالدية يستوفون حقهم من خمسة القاتل بالكامل.

وإذا ما سرقت الأموال أو أشياء أخرى وعرف أن الناهب قد هرب ففى هذه الحالة لا يبحث عنه بتاتًا بل يتجهون رأسًا إلى خمسته ويحصلون منهم على ما سرق.

وإذا كانت الأشياء المسروقة خاصة بالحكومة أو التجار أو أبناء السبيل ويكون قد بحث عن السارق مدة طويلة ولم يقبض عليه فالحكومة أيضًا تلجأ إلى قوانين العربان وتحصل على الأموال المنهوبة من خمسة الفار أو سميته.

لما كانت القوانين الخاصة بالخمسات والسميات معترفا بها لدى القبائل العربية ومعتبرة فأفراد العربان يعنون أشد العناية بحفظ أنسابهم وليس بينهم من لا يعرف نسبه. وكان مَنْ سُئل منهم عن نسبه يستطيع أن يعد نسبه قائلاً «أنا فلان بن فلان..»، ويصل إلى عشرين بطنًا من أجداده.

وإذا ما قبض على أى شخص من هؤلاء العربان على أنه سمية قاتل من قبل خمسة المقتول وادعى هذا الشخص أنه ليس من خمسة القاتل وأخذ بيده عصا رفيعة وقبض عليها بأصابعه أمام بعض الناس وأخذ يعد قائلاً «أنا فلان بن فلان حتى يصل إلى جده الخامس وكل ما يذكر اسمًا يرفع أصبعًا من أصابعه وفى النهاية تقع العصا من يده ويذكر اسم جده السادس وأثبت أمام شاهدين صحة ادعائه وحلف على ذلك يمكنه أن ينقذ نفسه، وإلا فلا طريقة أخرى لذلك، وهذا يتوقف على حفظ النسب.

ويقدم ذلك الشخص الشاهدين الذين أحضرهما للموجودين ويحلف يمينا خاصًا بالعربان، لذا رأينا إدراج صورته الصحيحة هنا.

صيغة اليمين:

أحلف بمن رفع السموات العلية، قاطع المال والذرية، ومفرق الخمس قضابة الجنبية، أنّى ما عددت إلا الصدق وأنى لست للضارب بخامس».

واليمين الخاص بالعربان قراءة هذه العبارة.

وعربان القبائل يهتمون فى عصرنا بحفظ أنسابهم، خمساتهم وسمياتهم، وكان الأمر كذلك فى الجاهلية لأن الافتخار بالآباء والأجداد كان مما يهتم به عرب الجاهلية أعظم اهتمام.

وكانت القبائل التى تتجمع فى مواسم الحج فى صحراء منى، تتفرق قبائل وقبائل وكان فصحاء القبيلة وبلغاؤها يصعدون فوق مكان مرتفع ويبدأ كل واحد منهم فى ذكر مفاخر قبيلته وخصالها الحميدة وسخاء أجدادهم وشجاعتهم فى ميدان القتال.

ولما كانت هذه العادة الجاهلية وإصرار العرب على ذلك ينافى المبادئ الإسلامية نزل قول الله تعالى:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ومن المصطلحات العربية، مثل خمسة وسمية؛ عوانى، منن، مجبودة من فروع تلك المصطلحات.

وكلمة عواني تعنى «المهلة» وهى جمع «عانى» ومنن تعنى النقود التى تعطى مقابل المهلة وجمع كلمة «منة».

والمجبودة:

أيضًا بمعنى المهلة إلا أن مدة المجبودة أكثر أو أقل عن مدة عانى بثلاثة أشهر.

سواء أكان «عوانى» أو «منن» أو مجبودة من القوانين البدوية المستقلة ومازال حكمها جار إلى اليوم بين العربان ومَرْعِىَّ الجانب.

عانى:

عبارة عن إعطاء مهلة مدة سنة وشهرين وأحد عشر يوما وثلث يوم والمثال على ذلك: إذا ضرب أى واحد من أفراد القبائل شخصًا آخر سواء أكان من قبيلته أو من القبائل الأخرى، وجرحه وكان هذا الجرح غير مهلك، وعرف هذا الضارب ذلك؛ فالواجب عليه أن يدخل فى دار أو خيمة أحد رؤساء العربان ويعرض ما حدث منه ويحكيه.

وإذا تلقى صاحب البيت الداخل قبولاً حسنًا وذبح غنمًا أو حملاً وأطعمه؛ كان هذا تأكيدا لحسن قبوله، وإيماء بأنه سيعمل على حل الموضوع الذى أتى من أجله. وفى اليوم الثانى يجتمع مع كبراء قبيلته ليبحثوا معًا موضوع الضارب وإيجاد حل لطلبه. وهذا الاجتماع لبحث ذلك الموضوع يقال له «جاهية».

وبعد أن يبحث صاحب البيت مع الهيئة الجاهية ويتشاور معهم فى خصوص هذا الموضوع يذهب مع الهيئة المذكورة إلى دار المضروب أو إلى بيت أحد أقاربه ذى الحيثية ويجلسون.

ويتقبل صاحب البيت الهيئة الجاهية بترحيب عظيم واحترام وفير ويحاول أن يقدم للهيئة وليمة عظيمة. إلا أن جماعة الجاهية ـ إذا كان الضرب الذى تعرض له المضروب خفيفًا ـ لا تشرب حتى القهوة التى يقدمها صاحب البيت قبل أن يضمنوا أنهم سيوفقون فى تحقيق الغاية التى أتوا لأجلها وأخذ تعهد بذلك.

ويقبل صاحب البيت رجاء جماعة الجاهية قائلا «فى وجهى» عندئذ يشرب أفراد جماعة الجاهية قهوة صاحب البيت ثم يطلبون مهلة سنة وشهرين وأحد عشر يومًا وثلث يوم حتى يسووا الموضوع وفق قانون «عانى».

ويطلق على تأجيل هذا الموضوع قدر هذه المدة «قانون عانى» وأقوى أنواع التعهد هو أن يمسح المتعهد بيده اليمنى وجهه بدءًا من جبهته إلى لحيته وتلفظ كلمة «فى وجهى» الذى يعنى أن رجاءكم مقبول وأتعهد بإلغائه.

المنن:

هو قانون إعطاء الضارب للمضروب مقدار النقود الذى عينته جماعة الجاهية. وتأخذ جماعة الجاهية من المضروب شخصيًا أو من أقاربه تعهدًا بأن الضارب لن يصيبه أى أذى فى المدة التى اتفقوا عليها وبعد أن يقرروا حل الموضوع وفق قانون «عانى»، وفى ظرف هذه المدة يقرر أفراد جماعة الجاهية المبلغ الذى سيدفعه الضارب للمضروب، ويسمى تسديد الضارب للمضروب المبلغ الذى حدد دفعه «منن».

المجبودة:

يطلق لفظ «المجبودة» على تعديل وتجديد حكم قانون عانى السالف الذكر بناء على وعد مقطوع. وإذا ادعى أعوان المضروب أنهم لن يستطيعوا أن ينتظروا انقضاء المدة التى حصل عليها أفراد جماعة الجاهلية، ففى هذه الحالة تعدل أو تنقض مدة «عانى» ويحكم على الضارب بأن يعطى مبلغًا آخر من المال للمدة التى سيعينها أطراف المضروب.

والمجبودة. هى المدة المعينة الجديدة التى من أجلها حكم على الضارب بإعطاء مال زائد للمرة الثانية، ويتعهد المضروب وأعوانه ثلاثة أشهر أو أقل أو تنقيص المدة أقل من المدة المعينة.

ولما كان بين البدو قضية السماحة فإذا كان أطراف المضروب من القبائل الكبيرة الشرفاء ذوات الحيثية فلا يقبل أفرادها النقود التى تقرر إعطاؤها فى المقابل سواء كان «عانى» أو «مجبودة».

وبعد أن يأخذ الضارب مهلة وفق القانون المذكور يستطيع أن يعيش حياته

العادية ويمارس أعماله إلى وشك انقضاء المدة سواء أكان بذاته أو بخمسته حتى يحصل على مدة جديدة وفق قانون «عانى» أو «مجبودة» ويضطر إلى أن يختفى ويستتر عن الأعين إلا أنه إذا استطاع أن يجد بعض المال لتجديد المدة وإطالتها وفق قانون عانى» أو «مجبودة» عندئذ يظهر ويسير حرًا فخوراً.

وإن كانت مدة «عانى» أو «مجبودة» تتجدد كل سنة إلا أنه ما لم يرض المضروب وأعوانه إن حددوا دية من الضارب ولم يأخذ المضروب من الضارب أو من أحد خمسته الثأر فإن له أن ينتقم منهم أى (الضارب أو أحد خمسته) بانتهاء المدة وعدم تجديدها.

وهذا بشرط أن يكون جرح المضروب غير قاتل، وإن كان الجرح مضراً وقاتلاً ففى هذه الحالة يدخل الضارب بيت رجل عظيم النفوذ ذا قدر كبير وإن كان هذا الشخص يرضى بدخول هذا الضارب فى بيته إلا أن هيئة الجاهية لا تتصل بالمضروب أو أعوانه ما لم يتبين أن المضروب لن يموت من أثر هذا الجرح. وعندما يعلمون أن جرح المضروب أخذ الطريق إلى الشفاء تلجأ هيئة الجاهية إلى أعوان المضروب ليعملوا على أخذ المدة كما سبق شرحه.

وبناء على قانون (عانى) أو (مجبودة) يحاول الشخص الذى استقبل هيئة الجاهية جاهداً أن يكرمهم، ويلح فى ذلك ولكن الجماعة المذكورة لا تمد يدها إلى الطعام، وإن ظل فوق المائدة أربعًا وعشرين ساعة ما لم تجد جماعة الجاهية صاحب البيت قد وافق على قبول مدة «عانى».

وإذا مات المضروب من أثر الضرب فلا يستطيع الضارب أو خمسته الإقامة فى منازلهم ويعيشون مختفين مستترين فى أماكن أخرى إلى أن يقبل أعوان المضروب الميت الدية، ومدة «عانى» وقد حدث أن كثيراً من الناس عاشوا فى ديار القرية خمسة عشر عامًا أو عشرين مساكين عرايا محتاجين نتيجة لمثل هذه الأحداث.

وإذا قتل أحد من جماعة المضروب الميت، بعد أن يقبلوا الدية، ومدة عانى القاتل أو واحداً من خمسته، قبل انقضاء مدة عانى؛ فإنه يقبض عليه أفراد

القبيلة التى ينتسب إليها لأنه لم يراع أحكام القوانين المعهودة وحفظًا للقانون، يسلمونه لجماعة القتيل الأخير فى ميدان خال. ويسمحون لهم أن يقتلوه بنفس الطريقة التى قتل بها المقتول. وسبب ذلك مسح أحد خمسة المقتول فى غاية الاحترام وجهه قائلاً «فى وجهى». لأن قانون عانى لا يكون سارى المفعول ما لم يسمح هذا الرجل الوقور المهم من خمسة المقتول يده على وجهه قائلاً «فى وجهى»، وفى الوقت الذى يتلفظ به هذا الرجل بهذه العبارة يمسح القاتل وخمسته بأياديهم فى وجوههم وكأنهم بهذا يدخلون تحت حماية هذا الرجل العظيم.

وإذا حدث قبل انقضاء مدة عانى، وتعرض الضارب لأذى خلاف المأمول فيوقف صاحب الحماية إنقاذًا لسمعته وحماية لشرفه الشخص الذى سبب الأذى ويعامله بالمثل.

لما كان مدة عانى دستورًا للعمل بين البدو وقانونًا مقبولا بينهم وبعد معاهدة المدة المذكورة، وبعد التعاقد فيعطى كل واحد من الطرفين للآخر سندا يحتوى على قرار مدة عانى ويشترط أن تكون الشهود الذين كتبت أسماؤهم فى هذه الوثيقة من هيئة الجاهية.

قتل الإنسان بالسيف أو الرصاص ليس له أثر كبير بين البدو ولا يجلب الشهرة إلا أن خنق الإنسان يعد من الجنايات العظيمة. وبناء على ذلك إذا ما قبض على مثل هذا القاتل من قبل خمسة المقتول المخنوق يقتلونه ومعه ثلاثة من خمسته، أما إذا لم يستطيعوا القبض على القاتل بالذات يقتلون أربعة أشخاص من خمسته.

وإذا عرض خمسة الخانق الدية على جماعة المخنوق الفضوا، وفى هذه الحالة يحكم من قبل جماعة الجاهية بإعطاء دية أربعة أشخاص.

والدية الكاملة لإنسان «ثمانمائة ريال» ومن عادة البدو أن يدفع هذا المبلغ على أقساط ثلاثة فى ظرف ثلاث سنوات، وتعطى الأقساط المذكورة وفقا للأصول الآتية.

صورة تأدية الدية:

تسدد فى السنة الأولى ثلث الدية نقدا بالريال فى السنة الأولى، والثلث الآخر الخاص بالسنة الثانية يدفع نصفه نقدا بالريالات ونصف النصف الآخر يسدد بالأشياء ونصفه الثانى نقدا بالريالات. والثلث الأخير الخاص بالسنة الثالثة يدفع بالكامل الأشياء والمواشى وتقدر هذه الأشياء والمواشى بضعف ثمنها وبعد أن يؤخذ من القاتل أقساط الدية بهذه الصورة يأخذ خمسة القاتل من قبل جماعة المقتول كفيلا لضمان أنه لن يحدث أى تعد من قبل المقتول بعد أخذ الدية.

وجوه:

معنى «وجوه» حماية وهى قانون من القوانين البدوية المستقلة إن المسألة المهمة التى تتضمنها كلمة «وجوه» تجرى تحت بعض الأصول والقوانين، والمعاملات الخاصة بها تنبنى كليا على إيفاء القوانين والنظم التى سبق ذكرها.

ولما كان قانون «الوجوه» القديم يكفل استيفاء الناس حقوقهم، وقد تقرر قديمًا عدم الإخلال بهذه النظم بالاتفاق. والآن نبين أن هناك ثلاث قواعد مرعية بين العرب لأجل الوجوه».

١- القاعدة الأولى:

إذا قتل بدوى بدويًا آخر أو أحد أبناء السبيل ولجأ إلى دار شخص ذى مكانة حتى لا يُقبض عليه وفق قانون عانى الذى سبق شرحه، يرسل صاحب الدار إلى دار المضروب عدة أشخاص يكلفهم قبول أداء الدية، ويطلق على مجموع الأشخاص الذين أرسلوا ناحية المضروب «جاهية».

إذا لم تستطع هذه الجماعة أن تقنع المضروب بقبول الدية، ولم تستطع الحصول على عانى أو مجبودة أو منن، يراقب الضارب أحد من عظماء خمسة المضروب ويحدثه أن جماعة الجاهية التى أرسلت قد قبلت من جانب المضروب ويقول له «أنا داخل على الله وعليك عن سيئته».

فإذا ما وافق هذا الشخص على حماية الضارب المذكور فيرسل إلى جهة المضروب شخصًا يقول له «إننى أخذت فلان الفلانى مدة كذا إلى الوجه» يعنى للحماية فليكن فى معلومكم» فإذا ما بلغ هذا الشخص المضروب بهذه العبارة لا يستطيع المضروب ولا خمسته أن يتجرءوا على أذية الضارب.

وإذا ما حدث قبل انقضاء المدة المخصصة وقام المضروب لأخذ ثأره من الضارب يكون قد تعدى على حقوق الحامى وضمان حمايته. وبما أن هذا الحامى لن يستطيع أن يظهر بين العربان لشدة خجله فيحاول لحفظ شرفه أن يقتل هذا الشخص الذى تجرأ على التعدى على حق حمايته.

ولما كانت مادة «الوجه» والتدخل من القوانين والنظم المهمة ومرتبطة ومقيدة بتلك النظم. وعندما تحدث حالة ضرب كما سبق ذكره، يظل المضروب وخمسته مختفين متسترين من هذا القريب المحب ذى المكانة الذى لا يستطيعون رد كلمته حتى ينتقموا من الضارب حتى لا يسمعوا أن الضارب قد دخل فى وجه أحد الأشخاص العظام فلا يترك الحامى البحث عن المضروب وخمسته، وحيثما يقابلهم يرفع عقيرته قائلاً «إننى قد أخذت فلانًا وخمسته تحت حمايتى» فيسمعهم ويسمع الناس»، وإذا كانوا قد ذهبوا إلى مكان آخر يرسل الناس من خلفهم والذين يعلنون لهم قائلين: «إن فلانًا بن فلان أخذ الخبر قبل مجيء الحامى أو رسوله فقتل الحامى أو رسوله أو عمل على منعهما وزجرهما قبل تبليغ الحماية».

وإذا قتل فى هذه الفترة الحامى أو الشخص الذى جاء من طرفه فبناء على القانون الجارى بينهم يربطون هذا الحادث الجديد للدية أو إلى مدة عانى، ويتركون فصل القضية القديمة والنظر إليها إلى وقت آخر.

٢- القاعدة الثانية:

إذا كان شخصان يتجادلان مع بعضهما وأدرك شخص قريب منهما أن المناقشة ستؤدى إلى أنهما قد يقتلان بعضهما بعضا وكان هذا الشخص من عظماء العربان تدخل بينهما قائلاً: «إنى أقرعكم عن بعضكم بوجهى».

وإذا لم يكن هذا الشخص من عظماء العربان يذكر اسم أحد أكابر العرب ويعمل على إصلاح ما بين المتعارضين قائلاً: «إننى أفرق بينكما بوجه وحماية فلان بن فلان».

وإذا أراد المتعارضان أن يتركا النزاع بطاعة ذلك الشخص المتوسط وإذا لم يريدوا لا يهتمون بوساطة ذلك الشخص ويستمرون فى النزاع حتى نهاية المجادلة فيشتمون بعضهما وقد يضرب أحدهما الآخر ثم يحكمان أحد الأشخاص المعروفين بينهما، بالحق والعدل ليفصل فى هذه القضية. فإذا تبين بعد أن يحكم بينهما هذا الشخص ظلم أى واحد منهما فصاحب الوجه لا يترك هذا الشخص وحيثما يجده يضربه مرة إما بخنجر أو رمح أو عصا.

وإذا مات المضروب من أثر الضربة الواحدة فتجرى الأحكام المسرودة فى حق قتل النفس.

ويجرى هذا النظام فى حق من أخذوا الجانى تحت حمايتهم، وإذا أعطيت حمايته غيابيًا لأحد الأشخاص، وبما أن هذه الكيفية ستبلغ لهذا الشخص فإذا قبل ذلك الشخص الحماية فيجرى قانون حمايته حسب النظام المذكور. ولكنه إذا استنكف الحماية يخبر بذلك أحد الناس والشخص طالب الوجه يستفسر عن الموضوع من العارفين به بينما ينصرف الذى استنكف الحماية من جانبهم.

٣- القاعدة الثالثة:

إذا أراد أحد الوجهاء أن يتهم بعض الأشخاص وضيعى القدر والمكانة بالضرب والقتل ولكنه امتنع عن تأكيد كلامه باليمين فالشخص المتهم يدخل تحت حماية شخص من أمثال خصمه ومنزلته ويتخذ الأصول المرعية لجلب رحمته وإثارتها.

وذلك بأن يمسك كوفيته التى يتعمم بها من طرفيها ويجعلها فى رقبته ويقول له: «إن فلانا أسند إلى جنحة بطريقة ما فأقسمت له ولكننى لم أستطع أن أقنعه لأجل ذلك لجأت إلى حمايتك وهى دار الأمان عن شره، فأرجو أن تحمينى من شره».

ويقبل هذا الملجوء إليه ويبلغ للشخص الذى ضده حمايته بالذات أو بالواسطة، ويبين له إذا كان له حق الاستماع إلى الموضوع أن يعين حكما يثق فى كلامه.

وبناء على هذا القرار يستمع الشخص الذى تعين حكمًا إلى أقوال الطرفين، وإذا كان رأيه تبرئة ذمة الرجل فلا يتدخل لذلك الشخص بعد ذلك أبدا».

رفقة الطريق وما يتعلق بها:

لما كان منذ زمن بعيد قد حددت الأراضى التى تسكنها القبيلة من قبل رؤساء القبيلة وميزت بوضع علامات معينة ولكن نفوذ كل فرد من أفراد القبيلة يُعدُّ جاريًا فى داخل هذه الأراضى، لذا لا يأمن واحد من عربان القبائل الأخرى أو أحد أبناء السبيل الذى يمر من هذه الأراضى على نفسه ما لم يدخل تحت رفقة واحد من شجعان القبيلة والمشهور بها ولا ينعم بسلامة الوصول.

وإذا اتخذ شخصًا متصفًا بالصفات السابقة دليلاً له فهو يأمن على روحه وماله، ويسلم من كل خطر وبلاء ويصل إلى نهاية البلاد والأراضى التى ينتمى إليها الدليل. ولكن بعد الخروج من هذه الأراضى تسقط حماية ذلك الدليل عن الحكم فيضطر المسافر إلى أن يدخل تحت حماية شخص آخر من تلك البلاد التى يسير فى أراضيها حتى يسلم من الخطر. وبناء على هذا يكسب المسافرون والسياح فى الجزيرة العربية سلامتهم بمراضاة الأشخاص الذين يدخلون تحت حمايتهم وذلك بدفع النقود لهم.

ولو سافر أى سالك سبيل أو مسافر بمفرده دون أن يهتم بنظام الحماية لو قتل فى الطريق أو نهبت أمواله وتعرض للسلب أو أية مصيبة تهدر جميع حقوق هذا الرجل سواء أكانت بالنسبة لروحه وحياته أم بالنسبة لأمواله ولا يلزم نحوه أى شىء وفقًا للقوانين البدوية.

التبييضية:

وهى قانون تبييض وجه الحامى بين العربان. وإن كان تعرض البدو إلى

الشخص الذى وضع تحت الحماية غير ممكن إلا أنهم يدرون إن مثل هذه الأحداث قد تقع.

فإذا ما تعرض الرجل الذى وضع تحت الحماية للسلب والنهب فلا يسكت حامى المظلوم، فإذا كانت هذه الواقعة ليلا من قبل رجال قبيلته فيسترد الأموال المنهوبة منهم ويعطيها للمحمى.

وإذا ما كانت الحادثة قد وقعت من قبل قبيلة أخرى تعهدت بعدم التعرض للأشخاص الذين يحميهم فعندئذ يتبع الحامى أفراد هذه القبيلة ويطالبهم بالأموال المسلوبة. وإذا لم يرضوا برد الأموال يصطحب معه بعض سميته ويذهب ليطلب الأموال المنهوبة. فإذا رفضوا فى هذه المرة أيضًا فإن الحامى يمسك بندقيته ويطلق رصاصة واحدة لقتل واحد من السارقين.

وهذا التصرف من الحامى هو ما يعرف بين العربان بـ «تبييضية» وبهذا التصرف يكون الحامى قد أنقذ شرفه.

وإذا لم تصب الرصاصة التى أطلقها الحامى واحدًا من اللصوص أو أصابته ولكنها لم تؤثر فيه ففى هذه الحالة يكرر محاولته فيقتل واحدًا منهم أو يجرحه جرحًا بالغًا مميتًا وهكذا ينقذ عرضه ويعود مع سميته ويعيد الأموال المسروقة من أموال نفسه وسميته ويعطيها للشخص الذى تحت حمايته.

وإن كانت هذه الخدمة تؤدى بدون مقابل. ويحدث أحيانًا أن تُطلب النقود نظير الخدمة أو أن النقود لا تطلب ولكنها تعطى كنوع من المروءة.

رفيق الجنب:

هو قانون يحدد سلوك الرفقاء ورفاقة الطريق.

إن مسألة الحماية ليست من الضرورى أن تكون نظير أجر مادى مترجم إلى نقود، بل من الجائز أن تحدث الحماية بعد أن يتناول الطرفان الطعام سويًا أو يشرب أحدهما قهوة عند الآخر، وبهذا يحق لهما حماية بعضهما البعض.

فمثلا لو أن أحد الأعراب المقيمين على جانبى الطريق الذى ستسلكه القافلة، توجه إليها وأكل طعامها أو شرب قهوتها، فمن حق هذه القافلة عليه الحماية والرعاية طالما أنها تجتاز حدود منطقته. وإذا اعتدى أحد سميته على القافلة أو فرض أتاوة عليها، فالواجب يفرض عليه حماية القافلة من أى تعد، رعاية لأصول الحماية.

وإذا ما نظر الشخص المعنى إلى الأمر نظرة استخفاف أو لا مبالاة، فإنه بذلك يكون قد أظهر عدم اكتراثه، وقوض حيثيته وكرامته وشرفه بين العربان. ويعتبر بذلك حقيرًا وضيعًا بين بنى قبيلته وعشيرته.

ولما كانت هذه العادات والأصول مرعية بدقة بين الأعراب، فقد كان يكفى عابر السبيل رشفة ماء من قربة أحد قطاع الطرق، حتى يكتسب حمايته ويسلم من مضاره وشروره.

وإذا لم يحترم أحدهم هذه الأصول والأعراف وأصاب بالأذى هذا الرجل الذى احتمى به، فإن صاحب الفوية التى شرب منها الماء، يكون ملزمًا بتخليصه من شره وأذاه، وإذا ما أصاب هذا المسافر نوع من الخوف أو الهلع من توقع اعتداء قاطع الطريق هذا عليه فى المراحل التالية، فإن صاحب القربة يرافقه الطريق حتى يوصله إلى بر الأمان والسلامة.

وكانت هذه الخدمات إذا ما قدمت بدافع الحمية والشهامة العربية، تتم لقاء أجر معين. وهذا كان نادر الحدوث.

وهكذا فإن هذا القانون المسمى (رفيق الجنب) والمعروف بين العشائر العربية كان ينظم رفاقة الطريق.

أما القانون الذى يطلق عليه بين العربان «**رفيق الجنب**»:

فهو عبارة عن قانون خاص بسلوك الرفقاء والصحبة فى الطريق.

طنيب الطنب:

هو قانون خاص للمحافظة على حق الجوار وذلك باتصال عدة خيام بخيام جماعة أو قبيلة ما.

وبما أن عربان القبائل يعيشون فى حالة ترحال فلا يتخذون مكانا ما مأوى ومسكنا بصفة دائمة، فينقسمون إلى عشرينات أو ثلاثينات أو أربعينات أو خمسينات أو ستينات من الخيم فينزلون حيث يعجبهم أو يقومون ويرتحلون حسبما يريدون، وإنهم لا يتركون أماكنهم ما لم تعد حيواناتهم جائعة من المراعى أو ما لم يكتشفوا مراعى أكثر عشبًا.

وعندما يعم الجفاف لا يسكنون فى مكان واحد أكثر من ثلاثة أيام وفجأة يتركون منازلهم، ويتفرقون بين عربان القبائل الأخرى ويحصلون على موافقة شيوخ القبائل الذين لجئوا إلى ديارهم بإعطائهم رأسًا من الغنم عن كل خيمة.

وهؤلاء الشيوخ يحمون الجماعات الواردة يصاحبونهم حيثما انتقلوا ويحسبونهم من جماعاتهم، وبناء على ذلك لا يتعرض لهم أحد بالأذية فإذا وجد من يتعرض لهم بالأذى فلا يستطيع أن ينجو من انتقام القبيلة كلها.

ويقولون لمثل هؤلاء الناس ـ أى الذين ينتقلون إلى أراضى غيرهم ويدخلون تحت حمايتهم ـ «طنيب الطنب» ومعناه الاصطلاحى الجيرة التى حدثت باتصال خيم هؤلاء بخيمهم.

المعاونة للدخيل: (إغاثة الملهوف):

من مقتضى القوانين القديمة بين العربان معاونة الدخيل، أى قبول الهاربين وإكرامهم قدر الإمكان وإعانتهم.

فإذا ما فر إنسان سواء أكان ذكرًا أم أنثى بعد ارتكاب ذنب أو جنحة أو جناية وأطلق المطاردون من خلفه رصاصا أو رمحًا قبل أن يدخل فى خيم أحد العربان سواء أصابه ما أطلق أولم يصبه فأصحاب الخيم ينظرون إلى جهة توجه الرجل الفار.

فإذا توجه الهارب نحو خيم الحريم، وقع الحادث المذكور قبل التقرب إلى الخيم بأربعين ذراعًا فبناء على القوانين العربانية لا يلزمهم شىء.

وإذا حدثت المطاردة السابقة فى داخل هذه الحدود أى أن المطاردين أطلقوا الرصاص أو الرمح فى مكان أقرب من أربعين ذراعًا وأقل منه وتبين ذلك فيكون المطاردون قد تعدوا على حقوق وحماية أصحاب الخيم وبناء على ذلك يتعقب أصحاب الخيم المطاردين ويقتلون من استطاعوا قتلهم بإطلاق الرصاص.

وإذا كان توجه الفار نحو خيم الرجال ووصلوا إلى جانب حبال الخيم التى تسمى طنب وخارجها فلا يدافع عن هؤلاء الفارين الهاربين وفق القوانين العربانية ولكن إذا حدث ما حدث فى داخل حبال الخيمة سواء أصابت الرصاصة التى أطلقها المتعقبون الفارين أو لم تصبهم، فبناء على القوانين العربانية فأصحاب الخيام يطاردونهم ولا يعودون إلا بعد قتل بعضهم.

ملاحظة:

فتعيين هذه المسافة الكبيرة والفرق الكبير بين خيم الرجال والنساء أى تحديد المسافة لحق حماية خيم النساء بأربعين ذراعًا يدل على مدى غيرة البدو على أعراضهم، وأنهم فى هذا السبيل يضحون بكل شىء.

وليس هناك بين البدو الخلص من يعرف ما هو الزنا، وإذا حدث مثل هذا الفحش فرضًا يقتلون الفاعل والمفعول، وفى هذا الموضوع لا يرحمون حتى أولادهم.

وبعد أن يراعى جانب الدخلاء من قبل أصحاب الخيم فجملة الجيران يستضيفون هؤلاء كل واحد منهم فى يوم خاص. ثم يعطى لهم الأغنام والحملان والجمال كمساعدة.

بعد ما يتم العون المقدم للدخيل يأخذ ما قدم له من العطايا، ويرجع إلى مقره الأصلى فيسوى أموره بدفع الدية وينهى الموضوع بالصلح.

وإذا كانت الإعانات المعطاة من تلك القبيلة كافية لتسوية أموره أو إذا لم يقدم له العون من قبل حماته ففى هذه الحالة فالأمر كله يحال لأفراد القبيلة الذين

يشمرون سيقانهم متفقين فيجمعون بينهم النقود الكافية لتسوية الأمر على أحسن وجه.

وهذا النظام من القوانين البدوية والعادات المرعية التى مازالت سائدة إلى يومنا هذا.

حفظ الأمانات والعادات الخاصة بها:

حفظ الأمانات أيضًا من القوانين العربية القديمة، وبناء على هذا إذا ما أعطى أحد العربان للآخر جملاً أو ناقة أو نعجة أو أشياء أخرى على أنها «أمانة الله» فالشخص الذى تسلم الأمانة إذا كانت حيوانًا مثلاً فإن المؤتمن يحرص على العناية بهذا الحيوان أكثر من حيواناته فيعلفه ويحرسه ويكثر نسله بالتوليد.

وإذا ما مات هذا الإنسان، فالحيوانات التى كانت أمانة فى يده تحفظ من قبل ورثته وتسلم لأصحابها وقت ما يريدون.

ومن الثابت المشهور أن عربان العرب إذا ما أخذوا ناقة أو ناقتين يكثرون عددهما بالتوليد دون أن يخونوا الأمانة وفرضًا أن الورثة لم يعرفوا صاحب الأمانة فإنهم يتحرون عنه حتى يجدوه ويردوا له أمانته.

والحملان التى تولد من النعاج والعنزات فإن الذكور يبيعونها ليشتروا بدلها النعاج حتى يزيدوا من عددها.

ولا يأخذون مقابل هذه العناية والإكثار شيئًا غير الانتفاع بلبنها.

ولما كان خلط الفساد فى أمور الأمانة يقلل من بركة أموالهم من الأمور المجربة لديهم لذا يبتعدون عن الغدر والخيانة فى هذا الموضوع.

وإذا ما نفق أحد الحيوانات التى تحت الأمانة فإنهم يقطعون جزءًا مميزًا منه ليروه لصاحب الأمانة.

وإذا ما نُهب هذا الحيوان من قبل قبيلة أخرى فيتتبعون هذه القبيلة ليخبروها أن المسلوب أمانة ويحاولون تخليصه من أيديهم ويبذلون الجهد لتخليص ما يمكن تخليصه.

والأمانات التى تعطى من قبل أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة مثل الهجن والحيوانات الأخرى للعربان تحفظ وفق النظام الذى ذكر أعلاه.

الملحس[1]: قانون خاص بلحس النار.

حدث منذ زمن أن أحد أهالى العرب المتدينين خرج ليزور قبر النبى ﷺ وبينما كان سائرًا بين عربان قبائل عوف اعتلت صحته فاضطر أن ينزل ضيفًا عند أحد أفراد القبيلة المذكورة. وقد أكرمه صاحب البيت أعظم إكرام ورعاه كأعظم رعاية، ووهب له جملاً لركوبه وقد سر الضيف من هذه العناية فى الاستضافة أعظم سرور ولما كان مضطرًا أن يقابل هذه المجاملة بمكافأة طلب من صاحب الدار سكينًا «على أن يظل حكمه وتأثيره باقيًا ما لم يبتعد عن الحق وأن ينتقل من بعده لأولاده وأحفاده» ثم أدخل هذا السكين فى داخل النار الموقدة فى مكان خال من الناس حتى احمر أشد الاحمرار ثم أخرجه من النار، وتلا عليه بعض الأوراد ولعقه بلسانه وجعل صاحب الدار أيضًا يلحسه. وبعد ما أثبت الضيف أن هذا السكين لن يضر لسان صاحب البيت بالفعل.

ثم أراد أن يبين أن هذا الفعل منحصر فى الصدق والاستقامة فقط، وقال لصاحب البيت «خذ هذا واحفظه فى مكان أمين وعندما أطلبه منك أنكر ذلك قائلاً: «لا ليس لى علم بمثل هذا الشىء».

فأعطى لصاحب البيت شيئًا ما، وبعد مدّة رجع وقال له «كنت أعطيت لك كتابًا بالحفظة إننى محتاج إليه الآن فأحضره لأننى أريد أن أطلع عليه» فرد عليه صاحب البيت مجيبا لا! إنك لم تعطنى كتابا ولا غيره لابد أن فى الموضوع خطأ. عندئذ أخرج الضيف ذلك السكين المحمر من أثر النار، وقال له إذا كنت لم تأخذ الكتاب الذى أعطيته لك العق هذا السكين! وعندما لعق الرجل السكين احترق لسانه إلا أن الضيف سقاه قطرة من الماء فانتفخ المكان المحروق والتئم مباشرة.

وقد تعجب صاحب البيت من حالة هذا الرجل واستعظم الخواص التى رأها

(١) مشهور بين أبناء المنطقة الشمالية الشرقية فى مصر باسم «البشعة».

فى الضيف ولم يكن يعرف أنه يريد أن يسدى له معروفا؛ لذا قال له «يا أيها الشيخ ما أعجب هذه الحالة» فرد عليه الشيخ قائلا: هذه خصلة جليلة تفرق وتميز بين الحق والباطل وغرضى أن أعلمك مقابل ما قدمته لى من معروف فلتعلم أننى قرأت على السكين عبارة كذا وبعد هذا كل من يراجعك لحل موضوع ما فسخن سكينًا حتى الاحمرار ثم اقرأ عليه العبارة التى علمتك إياها واجعل المدعى عليه يلحس هذا السكين! إذا كان الشىء الذى أسند إليه كذبًا وبهتانًا وافتراء فلا تؤثر سخونة السكين وشدة حرارته فيه، وإذا لم يكن بهتانًا يحترق لسان الرجل» وأعطى له إذنًا بأن يمارس هذا العمل كما رأى منه ليترافع عن الناس، ثم لقنه هذه التعليمات قائلاً «بعد هذا سيراجعك الناس من جميع الجهات يجب عليك ألا تنحرف عن طريق الحق فى إحقاق الحق والتمييز عن الباطل ويجب عليك أن تحقق وتستفسر عن المراجعين أولاً عن الموضوع الذى يراجعونك لأجله، إذا كان شيئًا مهما خذ المدعى عليه فى مكان خال وحاول بعبارات ملائمة أن ينهى الموضوع صلحًا وأن يسكت خصمه بإعطائه بعض الأشياء وبعد ما تأخذ منه وعدا بذلك الصلح بينهما حسب العهد الذى قرره على نفسه. وإذا ما امتنع المدعى عليه عن الإقرار بما هو واقع ففى هذه الحالة يقبل منه المدعى مقدارًا من المال مقابل الجناية التى ارتكبها واطلب كفيلاً يضمن ذلك وإذا ما أعطى كفيلا تباشر العملية وفصل الدعوى وفق قانون ما بشرط أن يعطى لك عشر المال أو الأشياء التى يدور عليها القضية، وهكذا علم الشيخ خواص هذه الحالة ثم فارقه مودعًا.

وأخذ صاحب البيت يمارس علمه وفق ما تلى من ضيفه من تعليمات ويفصل بين المتخاصمين ولما سر منها المتخاصمون اشتهر اسمه بين العربان وظل اسمه بعد ذلك ملحسا.

بعد هذه الواقعة اضطر الذين يعجزون عن إثبات شىء ينكره فاعله لمحاكمة الملحس للفصل بين الحق والباطل والتمييز بينهما، ويراعى الآن جميع القبائل وأهل العراق البدوى الملحس ليعرفوا أن المتهم بالقتل أو جنايات أخرى برئ

الذمة من ذلك، وإنهم يثقون تمامًا فى الحكم الذى سيصدره الملحس بعد أن يلحس المتهم السكين.

ولما كان سر هذه الخاصية انتقل إلى أحفاد وأولاد ذلك البدوى فالعربان يراجعون البدوى الملحس فى قضاياهم المعقدة الصعبة وبعد ما يستمع الملحس لادعاءات الطرفين يأخذ منهما عشر مادة الخلاف فإذا كانت الجناية قتلاً يأخذ عشر الدية قبل أن يُلحس السكين المدعى عليه.

وإذا ثبتت الحالة والتهمة على المتهم بالقتل يربط المدعى بكفيل قوى على أن يأخذ حقه من المتهم حيث يجده وألا يقتله بجانبه،ثم يجعل المتهم يلحس سكينة محمرة من شدة الحرارة فيأخذ حقه بناء على الحكم الذى ثبت من الجهة غير المحقة فى القضية ويرد نقود المحق، وإذا رضى المدعى بتسوية الموضوع فى القتل عن طريق دفع الدية، عندئذ يربط الموضوع على دفع الدية مقسطًا حسب قدرة المتهم المالية وما تظهر من قضايا بعد ذلك يحلها وفق ما سبق بيانه.

الجـرة:

الاسم الخاص لقانون تتبع الآثار. وفراسة العرب فى تتبع الآثار شىء مثير للتعجب.

وأكثر العربان يستطيعون أن يخبروا عن الوقت الذى مر فيه ومن أى مكان ما حيوان أو إنسان بالنظر للآثار التى تركتها قوائم الحيوان وأرجل الإنسان.

وقد جرب البدو الأحوال التى تحدثها الرياح على الأرض كما جربوا صلابة الأرض وليونتها، وجعلوها تحت ملاحظتهم. وبما تقرر بينهم من فن المقايسة والموازنة ودلالته الواضحة يدركون الوقت الذى مر فى هذا المكان صاحب الأثر وإن كان الوقت ليلاً.

وإنهم يدركون ما تقع تحت أبصارهم من الآثار وهم سائرون ليلاً، فيعرفون أن طائفة ما من العربان مرت من هناك قبل يوم أو يومين أو قبل ذلك كما يعرفون عدد جمالهم ومقر القبيلة التى تتجه إليه حتى إنهم يخبرون عن أفكار

تلك الطائفة قائلين بأنها كانت ذاهبة إلى القبيلة الفلانية للإغارة عليها والاستيلاء على أموالها، وإنهم يثبتون صدق مدعاهم بموافقة ما أخبروه للأحداث.

حتى إن قبيلة ما حينما تتجه إلى مقر قبيلة للإغارة عليها ليلاً فإذا رأت آثار أقدام كثيرة، فهم بدلالة فن تتبع آثار الأقدام أن هذه الجماعة لايمكنها أن تقاوم أعدادها لذلك تبدل طريقها وتغير جهة سيرها.

وإذا رأى العربان العائدون دون أن يوفقوا فى القبض على الجماعة التى كانوا يقصدونها آثار أقدام عربان أخرى فيتتبعونهم حتى يدركونها وينهبون أموالها، ويسلبونها ويطلق العربان على هذه المقاتلات بينهم للسلب والنهب اسم غزوة».

وبين العرب طائفة تعرف بـ «القصاصون» ولما كان شغلهم الشاغل الاهتمام بتتبع الآثار، لذا فهم يتفوقون على سائر العربان فى هذا الخصوص.

وإذا ما قتل أحد البدو الآخر أو سرق ماله، أو ارتكب منكرًا آخر فهرب من خوفه، فإذا لم يعرف أفراد القبيلة الهارب فإنهم يأتون برجل من طائفة القصاصين ليتتبع آثار الرجل، وهكذا يبدأ الرجل فى تتبع آثار الرجل بشم رائحة الحجارة ويتعقبه، وحس القصاص فى هذا الخصوص مصيب لأقصى درجة حتى إنه يستطيع أن يعرف إذا كان صاحب الأثر رجلاً أو امرأة، وإذا كانت امرأة هل هى بكر أو ثيب وإذا كانت ثيب، هل هى حامل؟ أم لا؟ كما يعرف من آثار الإبل هل هى محملة أو غير محملة وذلك من تأثير قوائمها على الأرض.

ولما كانت آثار أكثر الناس قد ثبتت فى أذهان القصاصين فإذا ما رأوا آثارهم يخبرون قائلين: «هذا أثر قدم فلان بن فلان. ويؤكدون صحة أقوالهم بمطابقتها بالواقع.

وقد حدث مرارًا وبعد التجارب أن قصاصًا قد تعقب آثار أقدام حيث اختفى صاحبها فى مكان ما أو فى منزله وقبض عليه. وعندما يُدَل أحد القصاصين على أثر قدم فالقصاص يخبر بهوية هذا الرجل وأين ذهب وما القصد من ذهابه وما

أمله، كل ذلك بالنظر لآثار أقدامه. وبناء على هذا لا يتتبع آثار ذلك الرجل ويصدق ما قاله القصاص. ويعاقب صاحب الآثار الذى ارتكب الجرائم وفق قانون الجزاء والمؤاخذة بعد إجراء التحقيقات.

وإذا وجد قصاص مشهور فى قرية ما أو فى قبيلة ما فلا يتجرأ أحد من تلك القرية أو القبيلة على السرقة.

لما كان أحد القصاصين قد برع فى فن تتبع آثار الأقدام واكتسب مهارة عظيمة فكان اللصوص لا يتجرءون على السرقة ليس فى قرية ذلك القصاص فقط بل حتى فى القرى المجاورة لقريته. وأراد أحد البدو أن يجرب مدى علم هذا الرجل فحاصره فى ليلة حالكة الظلام وضربه بعصا حتى أغمى عليه ووقع على الأرض، ولما أفاق المضروب بعد ساعة نظر إلى آثار أقدام الضارب ولكنه لم يستطع أن يتبينها لشدة ظلام الليل، وظل فى مكانه حتى الصباح وفى الصباح عاين الآثار بدقة فى ضوء النهار وعلم أن صاحب الآثار قد عاد إلى منزله، ولما كان صاحب دكان شغل بعمله. ولكنه كان يزن كل من يمر من أمام دكانه بميزان الملاحظة والمقايسة.

وبعد هذه الحادثة بثلاث سنوات بينما كان جالسًا فى دكانه وثب فجأة وضرب رأس أحد أبناء السبيل بعصا وأوقعه على الأرض. وقال للذين سألوا عن سبب ذلك: «كان هذا الرجل ضربنى قبل ثلاث سنوات فى المكان الفلانى على رأسى بعصا وأوقعنى على الأرض ليلاً وفر. وإننى كنت نقشت أثر الرجل فى ذاكرتى.

وكان أثر قدم هذا الرجل مطابقًا تمامًا للأثر الذى فى ذهنى لأجل ذلك ضربت الرجل بعصا مقتصا منه».

ولما سُئل المضروب قال: «نعم كنت قد تجرأت قبل هذا بثلاث سنوات على ارتكاب هذا الفعل لأجربه فى مدى مهارته فى فن تتبع الآثار». انتهى.

وفى الواقع أن فن تتبع الآثار قديم بين القبائل العربية، وقد ذكر فى كتب

السير أن النبى ﷺ حينما هاجر واختفى فى غار ثور قد أخبر به القرشيون من قبل القصاص الذى عينوه كما أن القصاص أخبرهم أن النبى ﷺ لم يتقدم خطوة إلى الأمام بعد هذا الغار. ولكن القرشيين وجدوا أمام ذلك الغار بيوت عنكبوت عديدة فوقه كما وجدوا أمامه عش حمامة وقالوا: «إن هذا المكان لم يدخله إنسان حتى قبل ولادة محمد عليه السلام» وبهذا الادعاء كذبوا القصاص، وكلما أصر الرجل على رأيه كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصرف أذهان هؤلاء عن تصديقه.

تتبع أخبار الأحداث واضطرارهم لذلك:

كان عربان القبائل يخافون من السيل والأمطار ومن الظلم والتعدى، كما يحترزون من التقلبات الجوية والرياح والعواصف وكانوا مهتمين أشد الاهتمام بأخبار الوقائع والحوادث، ويحصرون أفكارهم فيها حتى لا يصابوا بكارثة دهياء.

وأصبحت لديهم عادة الاطلاع على جميع أحداث الأماكن المختلفة، لذلك يسألون من يصادفونهم من أبناء السبيل عن المكان الذى يأتون منه وعن الجهات التى يتجهون إليها، وعمن رأوهم فى الطريق من قطاع الطرق، وعن العربان المغيرين، وعن مرض الحصبة والأمراض الأخرى، وعن الأماكن التى أمطرت السماء فيها، وعن السهول والوديان والمراعى.

وإذا كان آتيًا من بلاد ما يسألونه عن أثمان الأغذية والأوزان ولا يغادرونهم إلا بعد أن يستوفوا إجابة أسئلتهم.

ولكن مثل هؤلاء المسافرين يحترزون من إعطائهم الإجابات الصحيحة لأسئلتهم، ولا سيما عن الأماكن التى يتجهون إليها خوفًا أن يقطعوا طريقهم ويغيروا عليهم.

وإذا مر أحد المسافرين فى مجمع خيم البدو وأراد أن يستريح قليلاً فيأتى

واحد من جماعة البدو يبدأ أسئلته قائلاً «إيش علومك» ويتطلع إلى مدى علمه بالأخبار فيجيبه المسافر قائلا «خص وأنا أقص» أى عين وحدد سؤالك بالضبط وأنا أجيب عليك.

وعندما يقول المسافر «خص وأنا أقص» يبدأ السائل فى الاستفسار عن الأشياء التى سبق ذكرها، ويعود بعدما يتلقى الإجابة عنها. والمسافر مضطر للإجابة على أسئلة كل واحد منهم، فلا يستطيع أن يقول قد أجبت على أسئلة واحد منكم فاستفسروا منه».

وبما أن كل واحد من هؤلاء المستفسرين يبلغ قبيلته بما سمع وهؤلاء يبلغون الآخرين فحادثة ما إذا حدثت فى ركن من أركان الجزيرة العربية تنتشر على الألسنة وتذيع فى جميع أنحاء الجزيرة العربية.

سياسة الأمراء:

وسياسة أمراء العربان مرتبطة بقوانين معينة، إذ يستمع كل أمير إلى قضايا المدعين الذين يأتون لفض المشكلة. وكل من يخسر القضية يأخذ منه الأمير رأسًا ما يجب عليه دفعه، ويسلمه لصاحب الحق سريعًا ويأخذ ضعف ما يثبت عليه تنكيلاً به وبعد ما يدفع نصفه للمدعى يضع النصف الثانى فى صندوق بيت المال الذى تحت إدارته.

إذا ما تعدى أحد العربان على الآخر يتحرى سبب المشكلة من قبل الأمير أولاً فإذا كان هذا التعدى قد حدث قصاصًا مقابل جناية وقعت لأحد خمسة الجانى منذ زمن بعيد فيعفو عنه.

أما إذا تبين ظلمه فإنه يسجن فى مكان مكشوف أمام دائرة الأمير، ويعاقب بحرارة النهار وبرودة الليل إلى أن يصلح ما بينه وما بين خصومه.

ويعين الأمير جواسيس بين القرى والمنازل التى يحكمها ليطلعوا على الأحداث، وبالتالى يطلع الأمير على ما يحدث فى الأماكن التى يحكمها. وإذا

ما عرف بوجود جياد أصيلة أو إبل كريمة عند أحد الناس فيأخذ إناث هذه الحيوانات من أصحابها لزيادة نسلها فإذا ما قدم له طلبه كهدية فيعطيه فى مقابل خلقه بعض النقود أو يخلع عليه خلعة، وهكذا يراعى جانب المُهدِى.

أما إذا تردد صاحب المال فى تقديمه فقد كان الأمير يجمع رجاله ويهاجم هذه القبيلة بغتة، وينهب كل ما لدى هذا الشخص من خيول وجمال وأغنام، بل كثيراً ما كان يصل الاعتداء على الأرواح أحياناً، وبعد السلب والغارة، كان الأمير ينتظر بعض الوقت للراحة فى مكان قريب من هذه القبيلة، فإذا وفد إليه بعض رجالها للاسترحام وعرض الولاء والطاعة والندم كان يرد إليها أموالها ومواشيها.

ولما كان الأعراب لا يسلمون من الغارة والهجوم، لذلك لم يكن أى منهم يهتم بالثروة الثابتة، بل كان كل ثرواتهم من الأشياء المنقولة، وكانوا لا يهتمون بالعمل بالزراعة والتجارة لأنها تتطلب الإقامة الدائمة، وهم يفضلون حياة التنقل والترحال، ولذلك استنوا لأنفسهم سنة فيما بينهم تقضى بأنه إذا تعرض البعض منهم إلى النهب والسلب وسلبت كل أمواله ومواشيه، كان كل منهم يقدم إلى المغبون عونًا يتمثل فى بعض الأغنام أو الإبل حتى يتلافى ما ضاع منه. وكان الجميع ملزمين بهذا القانون

ليس للحجاز مثل البلاد الأخرى أَنْهَارٌ ومياه جارية وآبار ولحكمة الله ينزل المطر هناك فى السنة عدة مرات. أو فى عدة سنين مرة واحدة، لذا لم يمل سكانها للمدنية والاستقرار وتنقلوا حيثما سمعوا أن هناك أمطاراً وحيثما تشبع حيواناتهم انتقلوا هناك مفضلين البداوة على المدنية. ورأوا فى التسكع هنا وهناك فخراً ولم يجدوا فيه عاراً، والغرابة تكمن فى هذه النقطة.

إذا أراد أمراء العربان فى غير الحجاز واليمن أن يحضر أحد الأشخاص للمنازعة والمناقشة أو أى مطلب كان فإنهم كانوا. يكتبون على ورقة صغيرة أمر استدعائهم له ويرسلونها إلى ذلك الشخص وعندما يصله هذا الاستدعاء فإنه كان لا يتأخرو يستعجل للحضور، وهذا من ضمن أحكام قوانينهم الموضوعة، وعندما

يحضر المدعوون يضرب الأمراء على العصيان التى فى أيديهم بخناجرهم ثلاث مرات، ويعود المدعوون ويظهرُونَ أثر ضربات الخناجر لخصومهم فيذهب هؤلاء بدورهم إلى حضور الأمراء والويل كل الويل لهم لو تأخروا.

والآثار والخطوط التى تحدث فوق العصيان يطلق عليها بين البدو «وَقَر».

إذا أراد أحد أمراء العربان أن يحارب أميرًا أو قبيلة فبما أنه ليس عنده جنود منظمة يبعث إلى شيوخ القبائل الذين يتبعونه مبينًا عدد الأفراد الذين يريد إحضارهم والمكان والوقت الذى سيتلاقون فيه. ويحضر هؤلاء إلى المكان المعين وقد أعدوا لوازمهم الحربية ومؤنهم الغذائية.

ولما كانت قيادة هؤلاء الأشخاص الذين حشدوا فى يد الأمير الذى استدعاهم فيتولى الأمير قيادتهم ويتوجه بهم إلى مقر إقامة القبيلة التى يريد أن يغير عليها. وقبل أن يتحرك يرسل عددًا من الجواسيس ليطلع على أحوال القبيلة التى يريد أن يحمل عليها.

ولما كان استخدام الجواسيس من عادات أمراء العرب فإنهم كانوا يستخدمون فى هذا الأمر أناسًا موثوقين فى كتمان الأسرار فالجواسيس الذين يذهبون لاستطلاع أحوال القبائل وكشفها لا يمدون أحدًا بالأخبار إلا الأمراء.

وبعد ما يتعرف الأمير الذى يريد أن يخوض الحرب على أحوال القبيلة الداخلية معرفة جيدة بواسطة الجواسيس يلقى للأفراد الذين تلقى قيادتهم أشعارًا مؤثرة وخطبًا حماسية فيملأهم حماسًا وشجاعة ويقطع المسافة التى تقطع فى يومين فى ليلة واحدة ويفاجئ القبيلة التى يريد أن يغير على مخيمها فجرًا بالهجوم.

وفى مثل هذه الحملات يرسل الأمراء الذين تولوا القيادة، البدو فى مقدمة الجيش كالقناصة ويسوقونهم بينما هم يظلون فى المؤخرة كقوة احتياطية فى جهة ما منتظرين النتيجة. فإذا ما أحسوا آثار ضعف أو انهزام فى القناصين يهاجمون عامة وهذا من عادات العربان الجارية وقوانينهم المرعية.

وإذا ما قدر لهذه الحملة أن تنكل بالعدو وتغنم منه أغنامًا كثيرة، فقد كان الفرسان يحتفظون ببعض الغنائم لأنفسهم ويقدمون الباقى لقائدهم.

وإذا أعلنت إحدى القبائل الخاضعة لأحد الأمراء العصيان عليه وخالفت أوامره، كانت القبائل الأخرى تنصرف عنها، ولا تتعاون معها فى أى أمر من الأمور مالم تعد إلى طاعة أميرها. بل إن الأمر كان يبلغ أكثر من ذلك، فقد كانت تمتنع عن المشاركة فى القتال معها، إذا ما تعرضت لعدوان من قبائل أخرى.. وكان سبب ذلك بالطبع هو قوة الأمراء وظلمهم وتعسفهم.

قضاة وفقهاء الحكومة

إن أمراء العربان يستخدمون نوعان من القضاة أولهما القاضى والآخر الفقيه.

وإذا ما رأوا بين الجماعة من طال شاربه يستوقفونه على باب المسجد، ويأمرون بأن يعاقب الذين لا يداومون على أداء الصلاة مع الجماعة والذين يستخدمون الدخان والتنباكو، والنشوق وفق القوانين المرعية. ووظائف هؤلاء فقهاء البدو لا يتعدى مثل هذه الأمور.

أما القضاة فكانت مهامهم تتلخص فى الفصل فى الدعاوى المخالفة للأحكام الشرعية، وكذلك الدعاوى القديمة. وكانوا لا ينظرون أية دعوى مالم يقم أصحابها بتسديد الرسم الذى يقرر حسب أهمية الدعوى، والذى كان يطلق عليه اصطلاحًا «خبز».

ويطلق على أحد أنواع الأسلحة فى مصطلح البدو «خبز» أيضًا. وبعدما يؤدى الرسم المذكور يعرض المدعى قضيته وبينته أمام مجلس يتكون من عدة أشخاص مسنين كما أن المدعى عليه، يعرض إجابته أمام تلك الجماعة.

وبعد ما يستمع القاضى لادعاءات الطرفين يسجلها مضبوطة فيترك حل القضية والفصل فيها لآراء الحضور.

ولكن قبل أن يحكم أعضاء المجلس بالإجماع فى القضية يأخذ أحد أعضاء المجلس المدعى والمدعى عليه خارج المجلس ويحاول أن يحل القضية بالصلح

ناصحًا لهما وذلك بأمر القاضى وتصويبه، وإذا لم يستطع أن يصلح بينهما يبعث شخص آخر من قبل المجلس وتستمر النصائح إلى غروب الشمس وفى هذه الفترة يذهب كل واحد من أعضاء المجلس لإصلاح ذات بين المتخاصمين واحدًا تلو الآخر ويسعون لتسوية الأمر.

وإذا لم تنجح مساعيهم. يسأل القاضى الحضور قائلين: «هل حدثت مثل هذه القضية من قبل؟» ويجيب كل واحد من الموجودين بإجابة ما، ثم يقبل القاضى أقرب الإجابات لتلك القضية وأنسبها، وبعد أن ينفذ الحكم يعطى القاضى مهلة لتسوية الدين ويطلق سراح كفيل المحكوم.

وإذا اقتضى أن يحلف أحد المتخاصمين يمينًا. فإن اليمين بين العربان نوعان: أحدهما يمين خاص بمواد عادية والآخر خاص بالمواد المهمة.

والمواد العادية عبارة عن «الأموال المسروقة وارتكاب المنكرات» أما المواد المهمة عبارة عن جنايات خطيرة مثل القتل والزنا.

اليمين الأول عبارة عن تلاوة العبارة الآتية».

«والله العظيم والله الكريم، والله الذى لا إله إلا هو خالق البرية، العالم بكل خفية، رافع السموات العلية، قاطع المال والذرية ومفرق الخمس قضا بة الجنبية».

واليمين الثانى هو تكرار لفظة والله والله أربعين مرة، وصورة اليمين الثانية هى صورة اليمين الأول يطلق العربان على مثل هذا الحلف «أيمان شديدة».

وقد انقسم تحليف اليمين عند العربان إلى ثلاث أقسام.

«يمين مخففة مفردة، يمين مخففة غير مفردة، ويمين مغلظة».

القسم الأول:

اليمين المخفف المفرد وهو عبارة عن قول «والله العظيم وبالله الكريم».

٢- القسم الثانى:

هو اليمين الذى سبق تعريفه وهو «والله الذى لا إله إلا هو خالق البرية،

العالم بكل خفية، رافع السموات العلية، قاطع المال والذرية، ومفرق الخمس قضا به الجنبية» ويقال لهذا اليمين المخفف غير مفرد.

٣- القسم الثالث:

هو الحلف بقول «والله والله» أربعين مرة ويقال له: «الأيمان المغلظة».

ويكلف العربان بحلف الأيمان المخففة فى حالة المال المسروق. والحقوق المالية المتكررة. ويحلف الأيمان المغلظة فى حالة الجنايات مثل القتل والزنا والجنايات العظيمة.

الطب العربى

بما أن أفراد القبائل البدوية لا يقتنعون بعلاج أطباء العرب وجراحيهم المتمدنين، لذا قرروا أن يعالجوا مرضاهم بالأدوية المجربة بينهم.

الصفراء:

ويحمل العربان كل من يصفر لونه قليلاً على أنه حدث له من التهاب الكبد، وعلى هذا يطلون عقب المريض بزيت زيتون ثم يكوونه بإبرة كبيرة أو سكينة[1] صغيرة ملتهبة من الحرارة على شكل صليب وبطريقة مؤثرة ثم يسقون المريض قدرا من الماء المختلط بالفلفل الأسود. فيزول مرض المعلول بحكمة الله تعالى بتأثير تلك العملية.

وإن كان الأطباء يعالجون هذه العلة بأدوية مركبة من بعض مياه معدنية وأحيانًا بسولفات، ولكن بما أن هذا المرض له أنواع مختلفة فلا يعالج إلا إذا عرف نوعه وشخص.

الإمساك:

فالذى يجد صعوبة فى التبرز يسقونه لبن النياق فيحدث هذا اللبن فى داخل جسمهم ليونة فيزول عنهم ما يعانون منه.

ويستعمل الأطباء الآن لإزالة الإمساك الزيت الهندى والملح الإنجليزى وأدوية مماثلة لهما.

الصداع:

ويداوون الصداع بكى أحد الأوردة التى فى الرأس برأس مسمار ملتهب كما أنهم يكوون أحد الأوردة التى فى الرأس لوجع العين.

(١) هذه الإبرة الكبيرة الملتهبة أو السكين تسميان (واقب).

ولما كانت العملية التى تجرى لوجع العين مجربة كذلك من أهالى المدينة المنورة، لذا قد حدث مرارًا أنهم قد عالجوا المرضى الذين تعرضوا لوجع العين بأخذهم إلى أحد العربان الذى اشتهر فى الكى وجعلوه يكويهم. وهذا جار حتى الآن.

والأطباء يعدون أدوية الصداع حسب نوعه، لذا يجب أن يستعمل فى مداواة مرض العين الدواء الذى يناسب نوع هذه العلة.

وقد تقدم فى زماننا معالجة أمراض العين تقدمًا عظيما حتى ظهر أطباء حُذَّاق ومشتهرون وتعالج علة العين بواسطة هؤلاء المتخصصين.

إذا ما شق بطن أحد الناس بالرمح، أو الخنجر، أو أية آلة حادة وخرجت أمعاؤه خارج البطن، عندئذ يقطعون من داخل المجروح شحمًا من داخل بطن الرجل كمية صغيرة، ثم يسخنونها على النار حتى توشك على الذوبان ثم يرتبون الأمعاء ويضعونها فى أماكنها ويطعم المجروح بهذا الشحم الساخن ثم يخيطون الأماكن التى قطعت من بطنه.

وبعد أن يخاط جرح المجروح يُكْوَى، وهذا من مقتضيات الطب البدوى. وبعد أن يخاط جرح المجروح يوضع عليه قطعة من القماش وعليها عسل مخلوط بكمون ويربط الجرح عدة أيام ويغير هذا القماش عدة مرات حتى يلتئم الجرح ويطعم المجروح بحساء العظم أو اللحم فقط.

وهذه العملية الخاصة بفن الجراحة قد تقدمت تقدمًا عظيمًا والأمعاء التى خرجت خارج البطن يدخلونها وفق فن الجراحة فى داخله، ثم يخاط بواسطة الإبر والأدوات الخاصة بهذه العملية، ويوضع عليه ما يلزم من الأدوية ويغطى بقطعة قماش ويلف ثم يعالج حسب ما تقتضى حالة الجرح علاجه.

ومن عادات البدو قبل إجراء العملية إطلاق رائحة المسك والبخور. وبناء على اعتقاد أفراد البدو إذا ما أطلق فى أثناء إجراء العملية عطور ذات رائحة طيبة وشمها المجروح فإنه لا يتأثر من تعفن جرحه.

وإن كان إشمام البدو للمريض روائح طيبة، حتى لا يصاب بإغماء ولكن الأطباء اليوم يسقون المريض بعض الأدوية مثل «فوردى يال» حتى لا يصاب بإغماء.

ويستخرج حكماء البدو وأطباؤهم الرصاصة من داخل الجسم بسكينة ملتهبة فى النار بمهارة فائقة من الجسم بعد أن يشقوا مدخلها.

وإذا كانت الرصاصة قد وصلت إلى العظام وهشمت العظم ولم ينتبه المداوى لتلك الحالة والتأم الجرح ثم انتكس الجرح عندئذ يفتح المداوى الجرح كالمرة السابقة بسكينة ملتهبة فى النار ويخرج قطع العظم المهشمة ثم يخيط المكان الذى فتحه ويعالجون الجرح بتركيبة من العسل والكمون إلى أن يتم الشفاء ويلتئم الجرح.

يستعمل الجراحون فى عمليات استخراج الرصاص أنواعًا من الآلات التى صنعت خصيصًا لذلك الغرض.

وإذا ما تورم عضو من أعضاء أحد الناس وأصيب بالغرغرينة فى الداخل ولم يظهر له فتحة أو رأس عندئذ يشيرون إلى محل التورم بتراب الفحم ثم يدخلون الإبرة الكبيرة التى التهبت فى النار من شدة الحرارة فى سرعة ساحرة فى المكان الذى أشير ويخرجونها وبعد أن تخرج من الداخل التقيحات يصنعون فتيلاً من قماش ويغمسونه بـ (خيليت). ويدخلونه فى داخل الجرح. ويستعملون هذا الفتيل ما يقرب من ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع يضغطون على الجرح إلى أن يخرج الدم الأسود والماء الأصفر. وبعد ذلك يتركون الفتيل ويضعون على الجرح بصلا مقطعًا ويستعملون هذا الضماد.

والأطباء فى زماننا يستعملون بعض الأدوية ليقضوا على هذا النوع من الأورام وإذا لم تأت الأدوية بنتيجة حاسمة فإنهم يتدخلون جراحيًا ليزيلوا التقيحات الداخلية.

والعرب يكوون رأس من وقع من مكان عالٍ ومن فوق الحصان أو الجمل فتأثرت ضلوعه أو انكسرت.

ولما كان تكسر العظم شديد الألم فالأطباء يعالجون ذلك حسب شكل وأهمية العظم المكسور.

ويطعم العربان من تعرض للفتق بذرة القطن المطحونة المخلوطة ببياض البيض.

أما بين الأطباء لا علاج للفتق إلا «رباط الفتق».

أما من تعرض لمرض (داهنه) يدلكون جسمه بالزيت المخلوط برماد الخشب المحروق ثم يمسحون الزيت ويدخلون فى المنافذ التى ظهرت فى الجسم ابرة ثلاث مرات ويخرجونها.

وإن كان المريض لا يحس بألم الإبرة التى تدخل ولما كان المكان سينزف عند إخراج الإبرة فالإبرة التى أدخلت مرة ثانية تؤلم أشد الألم وإدخال الإبرة للمرة الثالثة يسبب ألما لا يحتمل.

واشتداد الألم بناء على اعتقاد البدو دليل على برء الجرح وعندما يشتد ألم الإبر يتركون إدخالها وإخراجها.

الداهنة:

داء خاص بالقبائل البدوية ومن يصاب بهذا المرض يحدث فى أصل كل شعرة من جسمه ابتداء من صرته حتى قدميه ثقب صغير ونتيجة لهذه الثقوب يصيب المعلول ضعف ويشعر بألم شديد حتى يظن أن عظامه تتألم.

ومن يصاب بداء الرياح والغازات والقولون يجعلونه يأكل الخبز الساخن غامسًا فى مسحوق النعناع إلى أن يشفى ومن جهة أخرى يطلونه بزيت الزيتون وزيت النعامة.

كما أنهم يكوون من تلدغهم الحية أو الثعبان بعصًا مدببة محروقة وبما أن هذه العصا تمسك السم ولا تسمح بانتشاره وتجمعه فى فتحة الجرح فيداوونه بالعسل والكمون.

وإن كان هذا النوع من التداوى يوافق الطب الحديث إلا أنهم الآن يداوونه بطريقة أخرى.

والمريض الذى أصابته رياح السموم يسقونه قدرًا من المسلى الطبيعى وينيمونه ويغطونه بأغطية كثيرة قدر تحمله ويجعلونه يعرق ويستفرغ ويمنعونه من شرب الماء قدر ساعتين.

والأطباء يعالجون مثل هذه الأمراض نتيجة لوخامة الهواء والجو بطريقة أخرى أيضًا.

أما الذى تعرض للرياح والبرد حتى لا يستطيع أن يتحرك يداوونه بحفر حفرة عميقة قدر طوله ويوقدون فى داخلها النار ويسخنون التراب ثم يبردونها قدر التحمل فينيمون المعلول داخل هذه الحفرة، ويغطون كل جسمه بالتراب ماعدا رأسه كما أنهم يغطون رأسه بقماش حتى لا يتعرض للتيارات الهوائية ويجعلونه يعرق ويتركونه حتى آخر قدره من التحمل ثم يخرجونه، ثم يزيتون جسمه بالزيت ويلفونه بأقمشة غليظة ويتركونه هكذا مدة ثلاث ساعات ثم يسقونه حساء اللحم.

ولما كان هذا المرض من نوع «رثية المفاصل» المشهورة فالأطباء يداوونه بالمياه الساخنة والمعدنية وهذا النوع من العلاج مرغوب لدى الأطباء الأوربيين.

كما أن المستشفى به يداوونه بهذه الصورة، إلا أن المستشفى به يخلعون عليه فرو الحيوان المذبوح ثم يرقدونه فى داخل الحفرة ويجعلونه يعرق.

وعندما يخرج من الحفرة تكون بطنه قد رجعت لحالتها القديمة أى أن التراب يكون قد امتص جميع ما فى بطنه من الماء الفاسد.

والمصاب بمرض الاستسقاء الذى يصل إلى هذه الدرجة يدهنون جسمه ويقومون بتكملة التداوى.

والأطباء يستخرجون هذا الماء بواسطة آلة خاصة، وكلما ساءت الحالة وتدهورت يخرجون الماء بالآلة المذكورة.

والمرضى الذين يتعرضون للقيء والإسهال يكوون أخمص أقدامهم بحديد ملتهب فى النار على شكل صليب.

وما زال هذا النوع من التداوى والعمليات الجراحية تجرى بين العربان حتى اليوم. وأفراد القبائل العربانية لا يعرفون شيئًا أكثر من ذلك. كما أنهم لا يقبلون تداوى إلا من يعرفونه.

الكرم العربى:

يشتهر قبائل العربان العربية عامة بالكرم والجود والسخاء حتى الفقراء منهم يجب أن يقدموا لضيوفهم ما يستطيعون تقديمه وإطعامهم على قدر إمكاناتهم.

وهم منذ القديم يشتهرون بالجود والمروءة والشهامة لأجل ذلك فالكرماء منهم ممدوحون والبخلاء مذمومون غير مقبولين بينهم.

ومهما كان البدوى فقيرًا أو محتاجًا لنصف رغيف خبز فهو مجبر على استقبال الضيف حسب قوانينهم. لذا تجد فى خيمة كل واحد منهم مكانًا لإقامة الضيف وصنع القهوة.

ولما كان بعض العربان يفرحون غاية الفرح بظهور الضيف فإنهم ينتظرون كل صباح ورود الضيف ويناجون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبعث لهم ضيفًا.

وإذا ما جاء فى قرية بدوية ضيف، سواء أكان معروفًا أو نكرة، يحرص أهل تلك القرية على استقباله بل يتنافسون فى سبيل ذلك، والذين ظلوا فى الخلف يرمون عصياتهم من فوق من سبقوه ويدعون بهذا بأنهم سبقوهم فيأخذون الضيوف إلى منازلهم.

وإذا صادف أن لقى أحدهم ضيفًا وفى بيته ضيف ورأى هذا الضيف شخص آخر من القرية وشكى من عدم وجود ضيف فى منزله منذ عدة أيام ودعا الضيف الثانى إلى بيته فيوافق صاحب البيت الأول وضيفه على ذلك حتى لا يكسروا خاطر ذلك الرجل.

وأول تحية عربان العرب لضيفهم أن يقدموا لهم ثلاثة فناجين قهوة متتالية، ولكن بن هذه القهوة لا بد أن ينضج بعد ورود الضيف ويطحن فى المطحنة ويسوى فى إبريق من الفخار يطلق عليه «جبه نه» وألا تكون القهوة زائدة عن حاجة الضيف وأن يكون فى فم جبه نه ليف.

إضافة:

ومن عادات قرى الأناضول تسوية القهوة فى الفرن بهذه الصورة. فإذا سمع أحد القرويين فى الأناضول أن ضيفًا وصل إلى غرفة الضيافة يأخذ شيئًا من البن النيئ ويسرع بإعطاء البن لصاحب المقهى الذى يحمص البن ثم يسويه ويقدمه للضيف وبعد ذلك يخاطب صاحب القهوة الضيف ويطيب خاطره قائلاً: «مرحبًا».

إلا أن بعض القادرين يقدمون للضيف قبل القهوة تمرًا أو زبدة وبعد الماء اللبن الرائب وبعد ذلك يقدم قهوته ثم يسأل عن أحواله وصحته، وهكذا يقوم بمراسم الضيافة ثم يحضر ما جهزه من الطعام، ويبتدر راجيًا أن يأكل الطعام قائلاً: (حياك الله على موجودنا) وكأنه يعتذر عن قلة طعامه.

وليس من عادات العرب أن يتناول المضيف الطعام مع الضيف، لذا فهو ينسحب إلى ركن وإذا كان فى الحجرة بعض الأشخاص يتناولون الطعام مع الضيف.

وإذا كان الطعام الذى قدم خروفًا أو حملا، قسمه الضيف ثلاثة أرباع أمامه؛ وربعًا يرسله إلى أهل البيت عن طريق أحد الموجودين، ويأكل من كل أعضاء الخروف ما عدا رأسه وذلك لأهل صاحب البيت ويبدأ فى تناول الطعام مسميًا باسم الله.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام يخاطب أحد الحاضرين صاحب الطعام قائلاً: «يا مُضيفنا أنعم الله عليك» وعندئذ. يتقرب صاحب البيت من الضيف ويقول

له: «هنيئا وعافية، ولا علينا فيما قصرنا به قدركم عند الله أعظم». وهكذا يعامل الجميع.

ويأكل صاحب البيت ما بقى من الطعام مع جيرانه، والذين لا يقدرون على ذبح كبش يذبحون شاة أو نعجة أو يحلبون لبنها ويطعمون ضيفهم.

ولا يستقبل بعض العربان ضيوفهم هكذا من بعيد، وحيثما نزل الضيف يتلقاه صاحب البيت بالترحاب وإذا لم يكن موجودًا فحرم صاحب البيت تقوم بالواجب نحو الضيف.

والذين لا يملكون غير ناقة يحلبونها يقدمون لضيفهم لبن ناقتهم معتذرين، كما أن بعضهم يشترون من السوق أو من جارهم معزة أو نعجة ويطعمون ضيوفهم وإذا لم يجدوا وقتًا لذلك ففى هذه الحالة يمسكون بنعجة أو معزة جارهم ويذبحونها وبعد ذلك يقدم له ثمنها والجيران لا يقولون له شيئًا بل يستحسنون هذا الفعل.

والضيف الذين يردون عندما يشح لبن النياق، أو يندر فيه الحيوانات يكرمون ضيوفهم بالجبن الذى خزنوه فى الصيف.

إذا ما حضر ضيف بينما يتناول طعام فى خيمة ما فعلى الضيف أن يجلس على المائدة بدون تكليف. إذا لم يجلس الضيف على المائدة ينظرون إليه نظرتهم إلى الخائن، وإذا كانت المائدة قد رفعت بعد أكل الطعام فالخادمة تدعو الضيف.

وعندما يدخل الضيف فى الحجرة أو الخيمة يقوم الحاضرون على خدمته فيسقى الضيف ثلاثة فناجين قهوة ثم يجلسون ويستفسرون عن حاله وخاطره وعن العشيرة التى ينتمى إليها وعن سبب مجيئه.

وإذا نهب ضيف فى الطريق بعدما خرج من البيت الذى كان ضيفه ثم عاد لنفس المكان الذى كان فيه ضيفا فيحظى مثل هذا الضيف على قدر مكانته بصحابة صاحب الدار.

وإذا فرضنا أن الضيف قد شرب قهوة صاحب البيت فقط يسير معه مسافة أربع ساعات وإذا كان شرب لبن يسير معه اثنتى عشرة ساعة ويقوم بحمايته ويسترد ما سرق من الضيف ويسلمه للضيف وإذا كان الضيف قد تناول طعامه أيضًا فعليه أن يسير معه مسافة ٢٤ ساعة وأن يسترد من اللصوص ما سرق من ضيفه ويرده له وهذه الأمور من أحكام القوانين البدوية وعلى صاحب البيت أن يقوم بها على أكمل وجه.

وقد يضحى صاحب البيت فى سبيل حماية ضيفه ووقايته بنفسه أو أولاده وعياله وعشيرته، وعلى الضيف أن يعد نفسه واحدًا من أفراد صاحب البيت وأن يدافع عنهم إذا ما تعرضوا لهجمات الأعداد وأن يحل ما قد يظهر من المشكلات.

معجزة:

إذا كان بين البدو من لا يقبل الضيف ولا يحبه فعليه أن يستقبل ضيفه ويحتفظ بكرهه له فى قلبه.

يروى أنَّ النبى ﷺ كان قد شرف منزل بدوى من هذا القبيل ولما كان صاحب الخيمة غائبًا فقد قامت زوجته بمقتضيات الضيافة وأحضرت حساء العدس الذى أعدته لزوجها ورجت النبى ﷺ أن يتناوله. وفى هذه الفترة وصل زوجها ولما وجد حساء العدس الخاص به أمام النبى ﷺ غضب غضبًا شديدًا ولكنه حسب القانون اضطر أن يكتم غيظه فى نفسه. وفى نفس الوقت أصاب فرسه التى فى الخارج مرض فتحير البدوى ولم يدر ما يفعله فاستنجد بالنبى ﷺ، وأراد النبى ﷺ أَنْ يظهر رضاه عن زوجة البدوى فقال: «امرأة بشوشة ورجل عبس، الضيف محمد، والطبيخ عدس أخرج أيها المفزعن هذه الفرس» ونفخ فى الفرس فطابت الفرس وفهم البدوى هوية ضيفه واعتذر مستغفرًا وطلب العفو.

والآن كل من يكتب هذا الحديث على بيضة ويكسرها ضاربًا على جبهة الحيوان المعلول ويمسح فم الحيوان بهذه البيضة يزول عن الحيوان بإذن الله أوجاعه.

تحمل الجوع والعطش:

أغنياء البدو وأصحاب الثروة منهم قليلون جدًا. والفقراء وأصحاب الحاجة فيهم كثيرون. وعربان القبائل من الأقوام التى تتحمل الشدائد وتصبر على الفقر والجوع وليس فى العالم قوم يتحملون ذلك مثلهم. والذى يشبع منهم مرة فى خلال أربعة وعشرين ساعة يُعد نفسه سعيدًا ولا يحصى عدد الذين يظلون جوعى عدة أيام متحملين ذلك وصابرين على الجوع.

والبدو الذين يخرجون إلى الطريق للذهاب إلى مكان ما يأخذون معهم زاد يوم واحد بدلاً من زاد أسبوع. وإذا صادفوا فى طريقهم بعض خيم البدو ينزلون عندهم ضيوفًا ويشبعون بطونهم. وإذا لم يصادفوا فى طريقهم مثل هذه الخيم أو لم يمروا بقرية ما، فإنهم يعيشون بهذا الزاد القليل مدة أسبوع. كما أنهم يعيشون بتناول الأعشاب التى تنمو بجانب الأغادير التى تكونت من أثر مياه الأمطار. وعندما يتجهون إلى مكان ما للإغارة على بعضهم بما أنهم لا يملكون القمح والأرز فإنهم يطحنون الدخن وأوراق الأشجار التى يطلقون عليها اسم «بروق» ويعودون بما يلزمهم قدر حاجاتهم من الدقيق وكلما يجوعون يضعون فى أفواههم قدرًا منه ويشربون ماء. ولا سيما عندما تقل الأمطار ويزيد القحط والغلاء يعيشون ببذور أشجار العرر.

ويصل قدر تحمل البدو للجوع إلى هذه الدرجة إلا أن تحملهم للعطش أكثر من ذلك إذ يطوون البوادى الخالية من المياه ومسافات طويلة، عندما تهب رياح السموم بكل قوة وفى المواسم التى لا يستطيع الإنسان أن يسير من شدة الحرارة، سائرين على أرجلهم أو راكبين.

وبما أنهم يعيشون هكذا جوعى دون مداواة يلزم أن تكون صحتهم أقل من

الأقوام الأخرى (من أهل الحضر) إلا أنه بالعكس فصحتهم جيدة وأجسامهم قوية إلا أن قوة أجسامهم لا تكتمل فبنية أجسامهم نحيفة وهم فى غاية خفة الدم.

وبينهم من تجاوز سنهم المائة ومع ذلك يحتفظ بصفى أسنانه كاملين.

ولما كانت هذه الطوائف تنتقل من بادية إلى بادية غير مستقرة فى مكان ما ولا ينهمكون فى تناول أطعمة مختلفة، ويعيشون فى أماكن ذات هواء نقى سليم فإنه ليس فيهم من أصابته الحصبة إلا قليلاً.

ولما كان العربان مقتنعين بأن الحصبة مرض معد مهلك جرت عادتهم إذا أصاب أى واحد منهم هذا المرض وإن كان ابنه الوحيد فإنه يتركه عند من أصابه المرض من قبل وإذا لم يجد مثل ذلك الرجل يترك وحيداً. هذه العقيدة خاصة بالبدو الذين يسكنون فى الصحارى، إلا أن سكان القرى والمدن فى الجزيرة العربية والأماكن الأخرى والمتمدنين منهم لا يهربون ممن يصاب فى صباه بالحصبة، بل يعدون الأدوية الخاصة بها ويعالجونه.

غزوات العرب وأيامهم، وما يتعلق بذلك من عاداتهم وتقاليدهم.

الغزوة:

تطلق الغزوة بين البدو على إغارة بعضهم على بعض ونهب أموالهم ومواشيهم وأغنامهم.

والغزوة مقبولة وممدوحة لدى البدو كما أن الاشتغال بالزراعة والتجارة مذموم ومقدوح لديهم.

وقد أحل هؤلاء ـ لجهلهم وقلة درايتهم بالأمور الدينية ـ (الغزوة) ظانين أنها مأخوذة من لفظة «غزاة» الإسلامية، ويتجرءون على أن يسلبوا أرواح الأقوياء إذا ما وجدوهم ضعفاء وأن ينهبوا أموالهم وممتلكاتهم، وبناء على ذلك تجد هؤلاء الذين يملكون أموالا كثيرة ومواشى وفيرة قد ضاعت منهم ثروتهم وغناهم فى لحظة واحدة بينما الذين كانوا لا يملكون حتى شاة يصبحون أصحاب الثروة والغنى.

والعربان الذين يخرجون للنهب والسلب يتخذون أحدهم رئيسًا وقائدًا ولا يخرجون عن طاعته ورأيه. ومن أحكام السلب والنهب أن يكون نصف الخارجين فرسانًا والنصف الآخر من المترجلين.

وفى أثناء قتالهم لا يستخدمون الأسلحة النارية ولكنهم يقاتلون بالأسلحة البيضاء مثل السيف والرماح وما يشبهها من الآلات الجارحة.

وبعد ما يهيئون مهماتهم الحربية ويتخذون تدابيرهم القتالية ويقتربون من مقر القبيلة التى يريدون أن يقتحموها، يختفون فى مكان ما.

ويبعثون اثنين منهم للتجسس، ويصعد الجاسوسان على قمة جبل ما ويرصدون إذا كان ليلاً عدد ثيران أعدائهم وإذا كان نهارًا يرصدون جمالهم

وأغنامهم والجهة التى ترعى فيها ومدى بعدها من الخيم فيخبران بهذا وإذا كان الوقت ليلاً واقتنع المغيرون بأنهم يستطيعون التغلب عليهم يقتحمون مقر القبيلة صباحًا، فينهبون أموالهم وحيواناتهم. وإذا كانت الغارة بالنهار يقيدون الرعاة فى جذوع الأشجار ويسوقون ما نهبوا من الحيوانات بسرعة شديدة حتى لا يلحقهم أفراد القبيلة المنهوبة، ويعودون إلى مأواهم.

ويستدل أصحاب الحيوانات من عدم رجوعها وقد حل الليل على أن حيواناتهم قد تعرضت للسلب والنهب فيركبون ما احتفظوا به من الجمال والخيول فى جانب الخيم ويتتبعون المغيرين بضعة أيام فإذا ما أدركوهم واستردوا أموالهم بالحرب عادوا إلى أماكنهم فرحين مسرورين، أما إذا أدركوهم ولكنهم لم يتجرءوا على حرب أعدائهم لكثرة عددهم وقوتهم يعودون يائسين متألمين.

أما إذا اعتمدوا على كثرة عددهم أو على بسالة وشجاعة أفراد جماعتهم فإنهم يتتبعون آثار ناهبيهم إلى مأواهم فيستردون أموالهمم بالحرب كما ينهبون أموال أعدائهم وحيواناتهم ويشتتون أفرادهم . ولا أهمية بين البدو لمن سقط ميتًا فى أثناء الحرب والدفاع.

ويتفق أحيانًا خمسة أو ستة من أصحاب الهجين مع خمسة وستة من الرجال ويخرجون إلى الطريق فيقطعونه ويسلبون أموال وأشياء من يصادفونهم فى الطريق من العربان والمسافرين ويتركون أصحابها يندبون حظهم العاثر.

وأحيانًا يتفق ما يقرب من خمسة عشر شخصًا أو عشرين من المترجلين ويصعدون إلى قمم الجبال حيث لا يمكن الوصول إليها بالحيوانات فينهبون ما يقدرون على نهبه من الأموال والمواشى ويتركون هؤلاء المساكين منتحبين عرايًا مثل الحجاج الذين نهبوا فى طريق الحج.

وإذا صادف مثل هؤلاء النهابين ـ قل عددهم أو كثر ـ الذين فارقوا مأواهم عصابات أخرى أقوى منهم يكونون كمن أضاعوا ما فى خيمهم من الأكل.

وهم يذهبون لشراء الأرز من دمياط، وأحيانًا قد يدفعون حياتهم ثمنًا له.

والذين يتعرضون لمثل هذه المصيبة ويعجزون عن المقاومة يختفون فى مكان ما فى الجبال لينجوا بأرواحهم وإذا اضطروا للحرب يهاجمون بعضهم بعضًا بتحريض رئيس كل واحد من الطرفين.

وإن كان عدد أفراد الفريق الذى شرع فى القتال أقل من عدد أفراد الفريق الآخر فالمعتقد بين البدو أن الذى بدأ الهجوم أولاً هو الذى يكسب المعركة. وإذا فرض أنهم قد انهزموا فلا يبالون به ويرمون بأنفسهم فى ميدان المعركة لأن الموت فى أثناء المعركة فخار لهم.

وقبل الهجوم يردف الركبان المشاة خلفهم ويسيرون وعندما يصلون إلى مكان فيه أشجار ينزلون من على جمالهم ويقاتلون مع مشاة الطرف الآخر متخذين الأشجار والأحجار متاريس لهم كما أن الركبان يحاربون مع ركبان الطرف الآخر إلى أن يتبين الغالب من المغلوب.

وإذا فهم أن المنتصرين سيقتلون المغلوبين ففى هذه الحالة يدخل أفراد القبيلة المغلوبة فى «وجه» وتحت حماية الطرف الغالب ويعرضون ذلك على الفرقة الغالبة وفى هذه الحالة تكتفى الفرقة الغالبة بالاستيلاء على أموال وأشياء الجهة المغلوبة.

والفارون سواء أكانوا راكبى الخيول أو الإبل فالذين يتتبعونهم يبلغونهم صائحين أنهم مؤتمنون على أرواحهم.

وفى النهاية يعطونهم الأمان لأرواحهم ونصف أموالهم.

وإذا اقتنع الفارون أنهم يستطيعون أن يهربوا بأموالهم استمروا فى الهروب، أما إذا تعبوا وعجزوا عن السير فيستسلمون وقت ما يعرفون بأنهم ائتمنوا على أرواحهم ونصف حيواناتهم ويسوون الموضوع بأن يسددوا النقود التى قدرت بها نصف حيواناتهم بما عندهم من النقود أو الأشياء.

ويؤخذ جمل الذى قتل فى الحرب وما عليه من الأشياء من قبل قاتله، وإذا لم يكن قاتله معلومًا فيكون جمله وما يمتلكه من نصيب الذى يمسكه أولاً وينهبه ويجرده من أشيائه.

منـاخ:

مناخ هذا نوع من المعارك العربية التى تجرى بين البدو. وتتم صورته هكذا، إذا طالت المعركة والقتال بين قبيلتين وإذا كانت تلفيات كل من القبيلتين وخسائرهما بالنسبة لعدد القبيلة تمثل زيادة مفرطة واشتد غيظ وغضب كل من القبيلتين وقرر أطراف كل من القبيلتين الاستمرار فى الحرب حتى تختار كل قبيلة أجمل بناتها وتركبها فى محفات يطلق عليها الهوادج وتسوقها إلى ميدان المعركة.

وعندما يتلاقى الصفان تكشف هذه الفتيات عند اشتداد القتال ستائر هوادجهن وترفعن نقابهن وتأخذن فى تشجيع المقاتلين إلى انتهاء المعركة كل واحدة تشجع مقاتلى قبيلتها بصيحات عالية ببعض القصائد الحماسية وأناشيد الفخر الشعرية المنظومة، ويأخذ رجال القبيلتين فى القتال ببطولة نادرة ويهلكون بعضهم البعض.

ومن قواعد مقاتلة المناخ أن تستولى الفرقة الغالبة المنتصرة على خيم المغلوبين ومواشيهم وكل ما يملكونه.

وليس من عادة العرب أن يعتدوا على أرواح الفرقة المغلوبة ولا على عرضها وشرفها. إلا أن أشجع المقاتلين من الفرقة الغالبة وبطلهم له الحق أن يأسر أجمل فتيات الهوادج من الفرقة المغلوبة فتعرض عليه قبيلة الفتاة مالاً كثيرًا ونقودًا وفيرة، فإذا طمع فى هذا المال يأخذه ويترك الفتاة إلى قبيلتها ولكن إذا لم يطمع فى المال واستطاع أن يكسب ود الفتاة وقلبها فله أن يعقد عليها ويتخذها زوجة.

الجرود:

وإن كان الجرود يعنى جنود البدو والعربان فأفراد العربان ينقسمون إلى قسمين أو فرقتين.

فرقة منهما تظل تحت إمرة الأمير الذى تتبعه، والفرقة الأخرى تعيش مستقلة وعندما تظهر حادثة تستعد للدفاع مع القبيلة.

فجنود العربان الذين يطلق عليهم جرود عبارة عن هاتين الفرقتين اللتين تحتشدان فى نقطة واحدة للدفاع عن القبيلة ضد أعدائها.

ويهيئ الذين يتبعون أميرهم ويخضعون له الذخائر والأدوات اللازمة للحرب ويذهبون بناء على تنبيهه وأمره إلى المكان المعين للاجتماع ثم يفوض الأمير قيادة المحتشدين لأحد الشيوخ ويأمرهم بأن ينتظروا حتى يصدر لهم أمره الأخير ثم يسوقهم إلى محل ما أو ضد قبيلة عاصية.

ويتولى قيادة فرقة (جرود) عند غياب الأمير شيخ يعينه الأمير. ويذهب هذا الشيخ إلى المكان الذى عينه له أميره ويظل منتظرًا بذاته أو ورود أوامر الأمير، إذا لم يذهب الأمير بذاته وأصدر أمر الإغارة على القبيلة العاصية، فيقسم شيخ فرقة الجرود قوته الموجودة إلى ثلاثة أقسام: «يكلف قسمًا منها بالاستيلاء على أموال ومواشى القبيلة العاصية وسوقها، والقسم الآخر يكلفه بحماية النقط الاستراتيجية التى قد يرد منها العدو والقسم الثالث يكلفه بأداء مهمة الشرطة. وبعد ذلك يهاجم مقر القبيلة التى قرر الإغارة عليها.

وإلى أن يطلب أفراد هذه القبيلة الأمان والحماية ينهب أموال ومواشى كل واحد منهم بل قد يقتلهم. وإذا ما انقادت القبيلة كلها ولم تدافع عن نفسها فلا يؤخذ شىء من أى واحد منهم.

وبعد أن يعطى أميرهم التابعين له الضمانات الكافية المناسبة للشيخ وبعد أن تتقرر الضرائب السنوية التى ستدفعها القبيلة المغلوبة يعود إلى موطنه.

ومن قوانينهم المرعية أن يحمل عظماء القبيلة المغلوبة ما جمعوه من النقود إلى الأمير الغالب بأنفسهم وأن يوصلوها ليده بالذات. وأن يرجوا من الأمير أن يخفف ما قرر من الضرائب ويحصلوا على موافقته.

وكل فرد من هؤلاء العربان الذين هيئوا للحرب عليه أن يدبر أمر طعامه وأكله وشربه ورصاصاته وباروده. أما الأمير فيشترى بعض الأشياء التى تكفى لأهل دائرته مثل: «الدقيق والأرز والبلح وذخائر حربية كافية وبعض المهمات فإذا ما امتدت الحرب واحتاجت جماعة لذلك وزعها عليهم.

وإذا ما اشترك الأمير فى الحرب. ولكنه لم يشترك فى القتال وظل منتظراً فى جهة ما مع الفرقة الاحتياطية منتظراً النتيجة يأخذ من الغنائم ربعها.

وأما إذا شارك هو والمغيرون فيأخذ ثلث الغنائم. ويوزع الباقى على العربان الذين يكونون فرقة الجرود، بالتساوى.

وإذا حصل أحد البدو على غنائم دون تعب فإنه يسلمها إلى شيخ القبيلة حتى يوزعها بناء على الأصول القبلية. أما إذا قتل عدوه وأخذ جمله أو حصانه وما معه فهذه الأشياء تخصه وحده قانونًا.

والعربان الذين يعيشون منفردين غير تابعين لأى أمير عندما تحدث حادثة يجتمعون حول الشخص الذى يستمد منهم العون.

يوم أبيض:

إذا ما اعتدى شخص على امرأة واغتصبها وإذا ما استغاثت المرأة فى أثناء محاولة اغتصابها وجاء الناس لاستغاثتها وأخذوا يتعقبون الجانى لأخذ الثأر، دوما كان موضوع العرض والشرف من أعاظم الجرائم عندهم، فلا يكذبون استغاثة المرأة التى تقول (أراد أن يغتصبنى) فحيثما أدركوا ذلك الشخص يمزقونه تمزيقًا بالخنجر المسمى عندهم جنبية.

وإذا كان الجانى من قبيلة أخرى فيجتمع أفراد قبيلة المرأة ويعلنون أنهم سيحملون على أعدائهم والقبيلة الأخرى تستعد أيضًا ويحرص الطرفان على القيام بحرب عظيمة.

ويطلق العربان على يوم حدوث هذه المعركة (يوم أبيض) وهذه العبارة تعنى أننا وإن لم نستطع القبض على الشخص الذى تسلط على عرضنا وأن نقتله ولكننا بيضنا وجوهنا إذ قاتلنا قبيلته قتالاً عظيمًا.

وعند وقوع مثل هذا الحادث يتعاون أفراد القبيلة مع بعضهم أشد التعاون حتى إن الذين بينهم قضية ثأر يتصالحون فيما بينهم حتى ينتصروا على أعدائهم. ولكن فى ختام الحادث يستأنفون مرة أخرى فكرة الثأر والانتقام.

التدابير والحيل الحربية:

يستخدم العربان الأسلحة ذات الفتائل، ومن عاداتهم المرعية عندما تقف الفرقتان متقابلتين أمام كل واحدة منهما الفرقة الأخرى يصيحون بصوت عال قائلين (الله أكبر) لترهيب العدو ويولولون ويملئون ميدان القتال بالصيحات إلا أنهم لا يحاربون فى ميادين وأماكن متسعة بل يحاربون فى الجبال والمضايق ومن خلف المتاريس الحجرية من حيث يتخذون أعداءهم أهدافًا لإطلاق الرصاص كما أنهم يمتنعون من إطلاق الرصاص متتابعًا حتى لا تذهب رصاصتهم التى أطلقوها عبثًا دون جدوى، وفعلاً ما يطلقونه من رصاصة لا تذهب عبثًا بل لابد أن تصيب إنسانا، أو حيوانًا.

وبما أنهم واثقون من رصاصاتهم فهم لا يحملون معهم أكثر من ثلاثين (طلقة) ويعدون حمل أكثر من ذلك من الذخائر عبثًا.

وأنهم عندما يحاربون العدو يتركون الكمائن خلفهم كقوة احتياطية وعندما تبدأ الحرب فهؤلاء الذين فى الكمائن يهاجمون العدو من الخلف مولين صائحين ليشتتوا أفكار العدو.

وفى أثناء الحرب يتخذون الشمس والرياح خلفهم حتى يجعلوا عدوهم مقابل الشمس والرياح ويعدون هذا التدبير من أسباب النصر. كما أنهم يبيتون عدوهم ليلاً إذا ما وجدوا فرصة بناء على قاعدة الحملات الليلية. وهذا ما يحرص عليه البدو.

ويحارب الفريقان بإطلاق الرصاص إلى أن يواجهوا بعضهم وجها لوجه إذ يمسكون قبضة سيوفهم فيحارب الفرسان الفرسان والمشاة المشاة فلا يسوق الفرسان خيولهم ضد المشاة المترجلين.

وبين فرسانهم شجعان يستطيع فارس أن يواجه مائة فارس إذ يقتحم صفوف الأعداء ويروى سيفه من دمائهم ويشتت أكثرهم.

وحتى يكسب هذه الشهرة فهو ينشد أناشيد الأبطال السابقين والشجعان فى

ميادين القتال من أسلافه ويذكر أسماء أجداده مفتخرًا متباهيا ثم يخوض ميدان القتال ويقتحم صفوف الأعداء.

وهؤلاء قسمان الصنف الأول منهم العربان الذين فى طريق الحرمين فحروبهم منحصرة على الجبال، وبما أن هؤلاء لا يستطيعون أن يواجهوا الناس لا يحاربون فى معارك الميادين المتسعة بل يحاربون مستترين خلف الحجارة كاللصوص.

والصنف الثانى هو أفراد القبائل التى تسكن فى نجد وجبل شمر وصحارى العراق والشام.

ويركب هؤلاء خيولهم ويكونون صفًا واحدًا متينا أمام أعدائهم ويتحركون وفق أمر واحد منهم وهكذا يشعلون وطيس الحرب وكل من اشتهر بين العربان بالشجاعة ينتمى لهذا الصنف.

لصوصية البدو:

يطلق على الجانب الشرقى للمدينة المنورة «نجد» وعلى الجانب الغربى منها «غور».

ويعمل عربان جهة نجد على ضرب بعضهم بعضًا والإغارة على أموال وحيوانات بعضهم. أما عربان الغور ومصر فهم مكبون على الإغارة على قوافل الحجاج والزوار وأبناء السبيل والقوافل التجارية، ولذلك فإن تعديات الغوريين أخطر وأكثر ضررًا من تعديات عربان نجد.

ويحمل الغوريون فى أيديهم دبوسًا وسكينًا حادًا، كما أن لبعضهم بندقية. ولما كان شغلهم الشاغل اللصوصية والنهب فهم سريعو الجرى حتى إن الفرسان لا يُدركونهم إلا بصعوبة. وإذا ما رأوا خُرْجًا أو صندوقًا أو أى شىء يحمل يستطيعون أن يحملوها حتى الجبل مهما كانت ثقيلة.

وما يضع إنسان تحته من أكياس وصرر وما يضعه تحت رأسه لحفظه من صرر وخرج يستطيعون أن يأخذوا ما فى داخلها من أشياء ثمينة بِخِفَّة كأنهم وضعوها بأيديهم.

ولما كانت السرقة فى نظرهم مباحة، فما يكسبونه من السرقة من النقود والأموال يكادون أن يحسبوها حلالاً.

وفيهم من ينفق أمواله التى اكتسبها من السرقة فى غرس الأشجار وحفر الآبار حتى يشرب منها المسافرون ويأكل من ثمارها المارون.

وإذا وجد أى إنسان أمتعته المسروقة فى يد أحد العربان وأثبت أنه ملكه يستطيع أن يستردها منه. وإذا قال هذا الشخص أن هذه الأمتعة قد اشتراها من شخص آخر وأرى هذا الشخص حلف يمينًا، عندئذ يدفع المال والنقود التى دفعها هذا الرجل من قبل صاحب المتاع.

إذا كان صاحب الأمتعة منهم فيبحث عن السارق حتى يجده ويسترد منه بقية أشيائه المسروقة كما يأخذ منه ما دفعه من النقود ويسترده تمامًا وهذا بعض أحكام قوانينهم.

وإذا ادعى العربى الذى فى يده الأموال المسروقة أنه اشتراها من عربان آخرين وحلف أنه لا يعرف الشخص الذى اشترى منه المتاع فيدفع له صاحب المال ما دفعه الثانى للشخص الذى اشترى منه المتاع ويسترده منه ثم يؤجر عيونًا وجواسيس ويبعثون إلى الأطراف للبحث عن السارق الأصلى فيستردون منه أمتعته الباقية المسروقة وما دفعه للشخص الذى استرد منه بعض بضاعته وما أنفقه من أموال للجواسيس تمامًا.

الأعراف والعادات المتبعة فى تربية الأطفال

والختان والولائم

تربية الأطفال:

يكلف العربان أطفالهم إلى أن يبلغوا السنوات الثلاث من عمرهم برعى الجدى والحملان حول قريتهم وعندما يبلغون السنة الرابعة من عمرهم يرعون الماعز والحملان فى أماكن أبعد من ذلك.

ولما يبلغون الخامسة من عمرهم يعلمونهم الجلوس على ظهر الجمال، ولما يبلغون السادسة يعلمونهم ركوب الجمال بمفردهم.

ويكتسب أطفال البدو مهارة عظيمة فى ركوب الخيول والجمال حتى أنهم يستطيعون أن يركبوا جملاً مهما جرى سريعًا ومهما كان الحصان العربى سريعًا. فركوبه والجرى به يعتبر بالنسبة للطفل العربى من قبيل اللهو وهم يعلمون الأطفال الذين تجاوزوا هذه السن إطلاق الرصاص من البندقية واستخدام (جنبية) الخنجر ويصاحبونهم فى الحروب ويتركونهم تحت الشمس نهارًا وتحت السماء ليلاً عرايا.

والأغنياء منهم يلبسون أطفالهم فى الشتاء قميصًا واحدًا ويرافقون الذين يذهبون للحرب.

وخلاصة القول: إن أطفال البدو يتعلمون ركوب الحيوانات والنزول منها كما يعودون على احتمال مشقات السفر. وخاصة على الحرب والقتال قبل بلوغهم سن الرشد، لأجل ذلك ترى فتيان الحرب حينما يستدعون للحرب يذهبون إليها فرحين مسرورين كأنهم يذهبون إلى العرس متسابقين ولا يتأثرون من حرارة الشمس وبرودة الجو وحيثما يكونون يسيرون عرايًا.

وعندما تبلغ الصبية الصغيرة السنة الأولى من عمرها أو الثانية تستر مكان

عورتها بحزام مصنوع من فرو الغنم أو الماعز. وهذا الحزام شراشيب مختلفة فى طول ذراع أو نصف ذراع ويوضع فوق الجسم العارى.

وتظل الصبايا إلى أن يبلغن السنة العاشرة من عمرهن من الأطفال يرعون الغنم والماعز، ويعلموهن فى هذه الفترة حلب النعاج والماعز وصنع اللبن الرائب والجبن وعندما يقتربن من سن البلوغ تنزع من عليهن الأحزمة ويلبسن القمصان ويستخدمن فى نسج قماش الخيم من الصوف.

وعندما يبلغن يجدون لهن زوجًا مناسبًا ويزوجوهن، ولكنهم لا يزوجون بناتهن قبل أن يعرضوهن على أبناء أعمامهن أو أبناء خالاتهن ولو كانوا متزوجين بثلاث زوجات.

وهؤلاء إن أرادوا أن يتزوجوهن ويعقدون عليهن وإن لم يرغبوا فى ذلك لا يسمحون بالزواج لهن إلا بعد ما يأخذوا بعض الأموال من الذين يطلبون الزواج منهن وبذلك يزعجون الفتيات وطالبى أيديهن.

صورة التأهيل وأصول الزواج:

يعد أبناء العم وأبناء الأخوات أكفاء لبنات العربان إذا كان واحد من هؤلاء غير مقيد بالزواج أو متزوجًا غير راض بزواج البنت من طالب يدها فمثل هذه البنت لا تتزوج. وإذا لم تكن للبنات مثل هذه العلاقات أو هؤلاء قد رضوا بزواج هؤلاء البنات عندئذ يبحث الذين يريدون تزويج بناتهم عن أكفاء إذا كان الراغب فى الزواج كفؤًا لابد أن يكون الرجل الذى يتزوجها كريمًا، شجاعًا فى الحرب، مشهورًا من حيث النسب.

ورجال العربان الذين يريدون أن يتزوجوا لا يتحرون عن جمال البنت ومالها وممتلكاتها بل عن قوة القبيلة التى تنتمى إليها وعن سطوتها، وعن كثرة أقاربها وعصبيتها.

والشخص الذى يتصف بالصفات السابقة، يأخذ موافقة أبى البنت وأقاربها ويرسل هدية عدا المهر الذى اتفق على دفعه حسب منزلته.

والمهر بالنسبة لأغنيائهم عبارة عن «بساط كبير وسوارين للمعصم من الذهب وفستانين، وبعض الإبل والأغنام».

وأما بالنسبة للفقراء فالمهر يتكون من «سوارين من فضة وفستانًا من دمور أسود».

ويقدم فى وليمة العرس الأرز المطبوخ وعليه لحم شاة ذُبحت من قبل وأعدت للضيوف وهذا من العادات العربانية الجارية.

وإذا كان أبو البنت من الأغنياء فإنه يعطى البنت ما عدا المهر الذى بعثه زوجها عددًا من الجمال والغنم وجارية وكَلْبًا.

وإذا كان فى القرية أحد من طلبة العلوم أو المشايخ ويرجع إليهما فى عقد الزواج وإذا لم يوجد فيذهب الطالب فى زواج البنت إلى أبى البنت أو أخيها، ويقول: «إننى أريد أن أتزوج بنتك أو أختك». فيرد عليه قائلاً «أعطيتها لك». ويعدون هذه المقابلة دليلاً على صحة عقد الزواج ويبادرون فى إجراءات الزفاف.

ويحدث فى بعض الأماكن أن يمسك أبو البنت أو أخوها عصًا ويمسك بأحد طرفيها طالب البنت والطرف الآخر أبو البنت أو أخوها ثم يخاطب الشخص الذى يمسك أحد طرفى العصا قائلاً: «أعطيت فلانة لك» للشخص الذى يمسك الطرف الآخر وبعد ذلك يكسر العصا من وسطها ويلقيها على الأرض.

وإجراء هذه العملية يُعد بين العربان تزويج تلك البنت لذلك الرجل وعلامة على صحة العقد.

والعربان يشترون جارية سواء أكانت بيضاء أو سوداء ويستخدمونها فى منازلهم. وبما أن الجارية مجهول نسبها فهم لا يميلون لاستفراشها.

واستفراش الجارية يعد عند العربان من الأمور المذمومة. وإذا حدث أن أنجب واحد منهم من تلك الجارية ولدًا ينظر إليه بين العربان بحقارة وذلة على أنه «ابن جارية» حتى ولو كان أحد أبناء الأعيان، وعندما يكبر ويريد أن يتزوج فلا يرضى

أحد أن يزوجه بنته ولو كان وضيع القدر قائلين فأخوها خاله لذا فهو وضيع النسب.

والأشراف الذين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وحواليهما يحبون التسرى كلهم وكذلك بعض مشايخ العربان. إلا أن الأولاد الذين يولدون من جواريهم يظلون مثل العبيد بجانب أولادهم الذين ينجبونهم من زوجاتهم العربيات والناس ينظرون إليهم كذلك بنفس النظرة.

حفل الختان:

يختن العربان أولادهم الذكور فى صورة مسنونة[1] فى اليوم السابع من ولادتهم، وبعضهم فى يوم الأربعين وبعضهم فيما بعد.

وقد تعود عربان بنى هذيل الذين يسكنون بجانب مكة المكرمة ألا يختنوا أبناءهم إلا عند الزواج فعندما يقررون عقد زواجهم عندئذ يختنونهم. وعندما يقرر ختان ذلك الفتى فمن عادة القرى المجاورة وكل واحد من المدعوين أنهم يهدون لصاحب الحفل كل على حسب قدرته خروفًا واحدًا أو أكثر أو جملاً أو شاة أو ثورًا.

كما أن من عادتهم أن يسوق كل فرد ما يريد أن يهديه من الحيوانات أمامه وأن يذهب إلى القرية التى سيحتفل فيها قبل الختان بيوم أو يومين.

ولما كان الذهاب إلى محل الحفل منفردًا خلاف الأصول، فيتجمع المدعوون فى جماعات تتكون من خمسين شخصًا، أو ستين ويذهبون معًا، لذا كلما يحتفل بحفل ختان يتجمع سكان عدة قرى معًا ويخرجون إلى الطريق وهم يطلقون بنادقهم ومسدساتهم وعندما يقتربون من القرية التى فيها العرس يشرعون فى إلقاء القصائد الشعرية التى تمدح صاحب الحفل وتتغنى بأوصافه عن فهم واحد ويأخذ بعضهم يرقص أمام المدعوين ممسكًا بالبندقية وسنان الرماح والحراب.

وحينما يعرف صاحب الحفل أن المدعوين قد وصلوا إلى خارج القرية يستقبل

(١) يعنى أن الختان سنة من سنن الفطرة فى البيئة العربية.

أهالى القرية الضيوف مطلقين البنادق والمسدسات ويلقون أمامهم القصائد والأبيات ويمدحونهم ويوصلونهم إلى أماكنهم الخاصة بهم.

ولما يصل المدعوون إلى أماكنهم الخاصة بهم التى أعدت من قبل يعطى صاحب البيت لكل عشرة منهم خروفًا ومقدارًا كافيًا من الأرز وقدرًا كبيرةً ويرجوهم أن يتصرفوا كما يحلو لهم حيث يوجدون.

والأماكن التى يقيم فيها المدعوون ليست فى المنازل والبيوت وإنما فى واد خارج القرية أو على سفح الجبل.

ويذبح المدعوون فى هذا المكان ما أهدى لهم من الخرفان ويسلقونها فيقطعونها ويأكلونها ثم يضعون فى حسائها الأرز ويتناولونه.

ثم يجتمع كل أهالى الخيم والقرى فى المكان المعين لهم حيث يوقدون نارًا عظيمة وينقسمون إلى قسمين حول النار قائمين وواقفين ويلقون المدائح ويظهرون مهاراتهم الكلامية وهكذا يقضون أوقاتهم فى الفرح والسرور.

ويجتمع المدعوون فى اليوم الثانى فى المكان الذى سيختتن فيه الغلام سائرين من أماكن نزولهم وهم يرقصون الرقصة التى يطلقون عليها «آردا»[1] جاعلين الغلام الذى سيختتن أمامهم مع بعض أقاربه وتاركين النساء خلفهم فى موكب حافل حتى يصلوا إلى مكان الاحتفال بالختان، وبعد ذلك ينسحب اثنان من أقارب الغلام الذى ستجرى له عملية الختان وأقارب البنت.

ويفصل الغلام الذى سيختتن عن الجماعة وفى يديه خنجر جنبية ويقف أمام الشخص الذى سيجرى العملية قائمًا ويأخذ فى الفخر ملقيًا بعض الأشعار الحماسية وقائلاً «أنا ابن فلان بن فلان» ويأخذ فى تعداد آبائه وأجداده ويخرج من يقوم بإجراء الختان سكينا فى غاية الشحذ ويبدأ فى سلخ جلد الغلام ابتداء من منبت الشعر إلى مقعده ويخرج الجلد كاملاً فى ظرف دقيقتين مع جلد ذكره.

وبناء على ذلك فمهما شعر المختتن بالآلام والأوجاع فيجب عليه أن يصبر وأن

(١) نوع من الرقص الذى يؤدى بالبنادق وهو من رقصات الحرب.

يتحمل ويظهر ثباتًا وهو يلقى كلمات فخر وأشعار نظمت لأجل هذا الغرض دون أن يتوقف أو يتألم حتى انتهاء العملية.

والذى يتحملون آلام الختان بكل صبر وجلد دون أن يبالى بآلامه الرهيبة يقابل من جانب عشيرته بكل ثناء وتمجيد كما يستحسن من قبل الخطيبة وبمجرد أن يلتئم جرحه يتزوجان.

ولا تلتئم مثل هذه الجروح إلا بعد أربعة أشهر وبما أنه لا ينجو من هذه العملية أربعون فى المائة من المختتنين، إلا أن أفراد القبيلة المذكورة يعدون هذا النوع من الختان علامة الشجاعة والرجولة فإنهم لا يتخلون عن هذه العادة وإن تأكدوا أن المختتن سيموت.

وإن كان أفراد قبيلة هذيل محبين لهذا النوع من عملية الختان ومصرين على إجرائها متحدين قبليا إلا أن الأطفال لا يختتنون قبل بلوغ خمس عشرة سنة أو عشرين. ويجرون عملية الختان هذه فى أيام العيد.

ويعد عربان تلك القبيلة إجراء العملية التى تخالف الشرع والإنسانية من المحسنات الدينية وفق مذهبهم.

وإذا وجد بينهم من لا يرضى بهذا النوع من الختان وفضل الختان وفقًا لأحكام الشريعة الغراء فلا يعد ابنه بين النساء رجلاً ولا ترضى أية فتاة بالزواج بمن اختتن على هذه الصورة.

وبعد أن يختتن الفتى على هذه الصورة وينجو بنفسه من يد المختن يتقدم عدة خطوات إلى الأمام ويأخذ فى الفخر قائلاً: «أنا فلان بن فلان» ويدعى الشجاعة ويجرى ما يقرب من مائة خطوة ليثبت شجاعته عمليًا، ثم يجعل المحتفلون الفتى أمامهم ويلفون به أطراف القرية الأربعة بينما الرجال يطلقون البنادق. والنساء تضربن على الدف وتنشدن المواويل ثم يؤتى به فى بيته حيث يرقد ثم يأكلون ما أعده صاحب البيت من طعام الحمير ويعودون إلى منازلهم.

وطعام الحمير هذا الدقيق المطبوخ وعليه زيت الزيتون. وبينما يرقد الفتى على السرير أو الفرش ينثر أقاربه على رأسه حفنة من الزبيب وبهذا يعلنون نهاية الحفل.

وبما أن الآلة التى يسلخ جلدها ستظل معوجه لذا يفردونها على خشبة ويشدونها شدًا جيدًا.

النخيـل:

تتحمل أشجار النخيل العطش وشدة حرارة الجو ويستفاد من أغصانها وفروعها وليفها غير بلحها وتعمر مائة سنة. وإنها الشجرة المباركة وهى لا تحتاج إلى الزراعة والحراسة والماء، كما أنها تتعرض فى الأراضى الحجازية لكثير من الآفات لذا يعنى بها العرب ويتحملون متاعبها، لأنها سبب من أسباب الثروة ويتعيش أصحابها بجزء من محاصيلها ويبيعون الباقى.

وبما أن هذه الأشجار المباركة لا تنمو فى كل أماكن الحجاز لذلك يحرص غارسوها أن يغرسوها على أطراف ممرات السيول وحيث يكون الماء قريبًا من سطح الأرض والأماكن الرطبة، وعندما يغرسونها يظلون يسقونها أربعين يومًا حتى تتمكن جذورها فى الأرض ثم يتركونها لحالها معتمدين على الأمطار.

والأشجار المغروسة منها فى أراض وفيرة المياه تثمر فى نهاية السنة الثالثة والرابعة والتى تغرس فى الأماكن الجافة تثمر بعد خمس أو ست سنوات.

ويقال للبلح أول ما يظهر «زهو» وعندما يحمر ويبدأ فى النضج يطلق عليه «رطب» كما سبق ذكره فى مجلد مرآة الحرمين.

والبلح فاكهة مغذية مقوية. فالبدو وأهل المدينة يفضلون أكل البلح الطازج منه ويبيعون الرطب.

ويحفظون البلح الخاص بالمدينة والذى يسمى «جلبى» وأنواعًا أخرى ويتاجرون ببيعها للزوار والحجاج.

وأما البدو فإنهم يجففون مثل هذا البلح ويأكلونه بدل الخبز إلى أن ينمو البلح الجديد. لأن البدوى عندما يجد التمر لا يفكر فى القمح أو غيره.

الخيـل:

يطلق فى بلاد العرب على ذكر الحصان «خيل» وعلى أنثاه فرس.

إنهم يربون الخيل ليأخذوا ذريته فقط، لذا لا يحتفظون بذكور المهر بل يبيعونها للبلاد المجاورة لهم. ولكنهم يحتفظون بأنثى المهور ليركبوها فى الحروب ويحرصون على الاحتفاظ بها، ولا يهتمون بفرس غير ثابت الأصل والجنس.

ويحدد صاحب الفرس الجنس الذى ينتمى إليه. ويكتب أجناس بعض الأفراس فى سجلات النسب وكلما تلد الفرس يضاف المهر لنسب أبيه وأمه.

ولا يستطيع أن يمتلك مثل هذه الأفراس الأصيلة أحد من فقراء الناس إذ يشترك عدة أشخاص فى ملكيتها. ويبيعون مثل هذه الأفراس فيما بينهم بستين أو سبعين ألف قرش.

وإذا ما باع أحدهم فرسًا يشترط أن يكون مهرها الأول الأنثى أو الثالث ملكا له. أو نسلها بعد المرة الثالثة يكون ملك المشترى.

وإذا كانت الفرس حاملاً فنتاجها سواء أكان ذكرًا أم أنثى ملك البائع، ويعطى له.

والذين يشترون الفرس الحامل مهما ولدت لا يكتمون ذلك ويصدقون القول فإذا ما ولدت أنثى وادعى الشارى كذبًا أنها ولدت ذكرًا «يعنى لو يكتم الحقيقة» فلا يعيش ذلك المهر المولود ويهلك، ولما كانت هذه المسألة من الأمور المجربة لدى العربان فلا يكتمون الحقيقة.

الوسم:

أكثر ما يملكه البدوى من الدواب الجمال. وبما أن هذه الدابة شديدة الشبه ببعضها فمن الصعب جدًا التعرف على ما سرق منها أو ضاع، لذا اتخذت كل قبيلة وسمًا خاصا بها.

وتطبع هذه الأوسمة على أذن الجمل الأيمن وفى وسط الجهة اليمنى من رقبته، وخلف أذنه وفى وسط الجهة اليسرى من رقبته، وعلى خدوده وجباهه وفوق أنفه. وعلى رجليه الخلفيتين اليمنى واليسرى وفى وسط عظمة فخذه وعلى ركبته. أى أنهم يكوون بالحديدة التى تحمل شكل الوسم المذكور والملتهب فى النار، والوسم هى تلك العلامة التى يعرفها الناس جميعًا.

وإذا بيع جمل أحد القبائل لقبيلة أخرى فالشارى يسم الجمل بالوسم الخاص بقبيلته، وعلى الجمل المباع من الأوسمة عدد القبائل التى اشترته، والجمل المسروق أو الضائع يعرف بوسمه الأخير وأينما وجده صاحبه يتعرف عليه من وسمه ويسترده، لذا ترده القبائل التى تعرف ذلك الجمل الذى أتى إلى محل قبيلتهم واختلط بجمالها.

علامات الأوسمة التى ذكرت من قبل تتنوع كالأشكال التى رسمت فى الشكل التالى(*) وكل واحد من هذه الأوسمة خاص بقبيلة معينة.

وقد تتفق عدة قبائل فى بعض الأوسمة إلا أنها تتميز وتفرق باختلاف الأماكن والمواقع.

ويدقق أفراد قبيلة نهابة قبل سرقة الجمال فى أوسمتها فإذا وجدوا أن تلك الجمال تخص قبيلة معروفة لا يمسونها، وإذا ما نهبوا الحيوانات ليلاً وكان بينها مثل هذه الجمال يتريثون حتى يأتى أصحابها فيسلمونها لهم.

ولا توجد علامات خاصة للأغنام والماعز، ولما كانت حيوانات كل جهة لا تشبه حيوانات جهة أخرى فإن كل واحد من أصحاب تلك الحيوانات يستطيع أن يميز حيواناته ويخرجها من بين قطيع من عدة مئات وكأنه قد وضعها بنفسه.

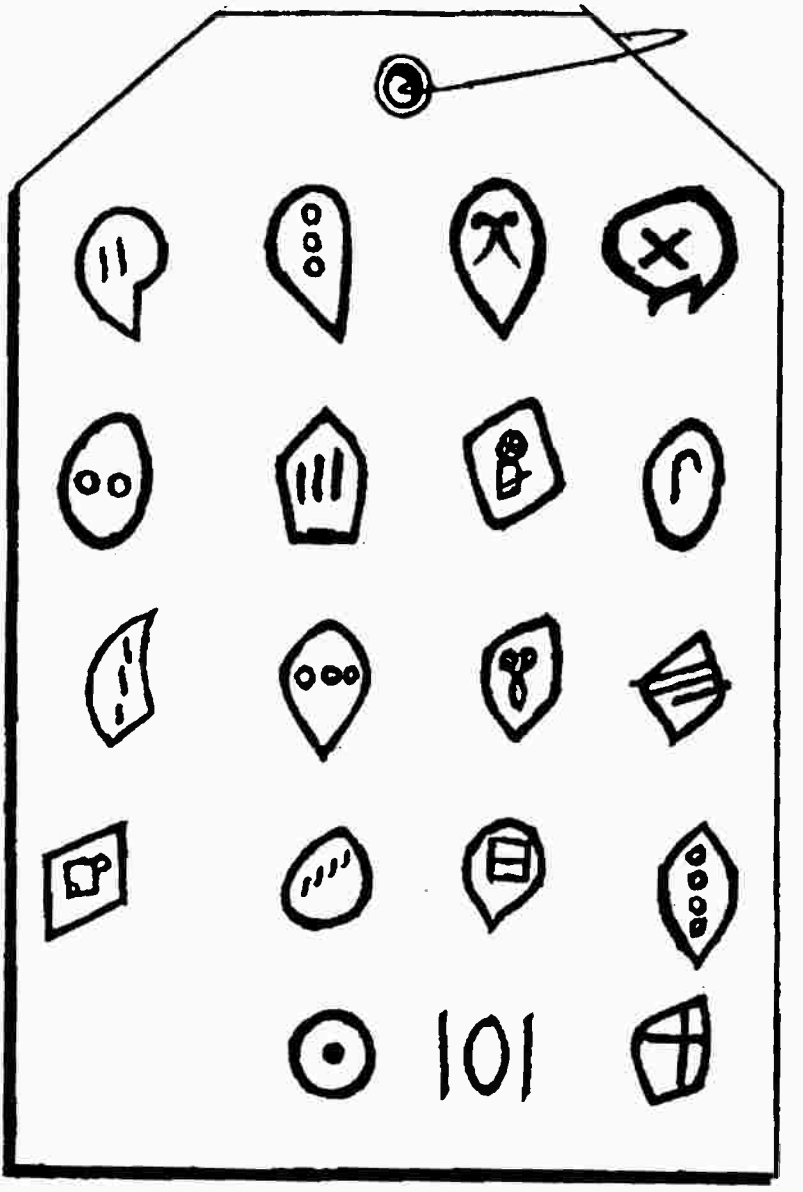

مع ملاحظة أنه إذا اشتركت بعض القبائل فى نفس العلامة فإن
موضع هذه العلامة من جسم الحيوان هو الذى يفرق بين القبائل

حماية الأراضى المنبتة:

إذا أحاط شخص ما بقطعة من الأرض تنبت فيها أعشاب بعد المطر بسور أو ببعض العلامات فى داخل أرض خاصة بقبيلة أخرى فلا يسوغ القانون للآخرين التدخل فى هذا الموضوع.

وإذا لم يراع أحد منهم هذا النظام ـ عمدًا أو جهلاً ـ فالشخص الذى أحاط المكان بالسور أو العلامات له أن يؤاخذ ذلك الرجل وفق أحكام القانون، وله الحق أن يصادر وأن يستولى على الحيوانات التى تركت فى داخلها لترعى.

وإذا دخل فى هذا المكان خيل أو حيوانات أخرى بدون علم أصحابها فيمسك صاحب هذه الأراضى هذه الحيوانات ويحتفظ بها وعندما يأتى صاحبها يسلمها له بعد ما يأخذ منه ما يستطيع عليه باسم «طراصه».

وإذا دخل إنسان من قبيلة أخرى فى مثل هذا المكان لرعى حيواناته عدة ساعات فلا يقال شىء لمثل هؤلاء الأشخاص من قبل صاحب المكان.

ولما كانت فى مواسم الصيف كل الأماكن معشوبة فالحيوانات ترعى خارج حدود مثل هذه الأماكن ولكن عندما تقل الأمطار فى أيام الصيف وتجوع الحيوانات فأصحاب الأماكن المسورة يدخلون حيواناتهم فى داخلها حيث ترعى وهكذا يدبرون أمور مواشيهم بهذه الطريقة.

حتى الناس الذين لا يملكون الحيوانات ولهم أراضى مسورة يحافظون على ما فى داخلها من أعشاب إلى أن تجف ثم يحصدونها ويقطعونها ويجعلونها أحزمة ثم يبيعونها لأهالى البلاد المجاورة. وطريقة معيشة مثل هؤلاء العربان الذين لا يملكون المواشى تتم عن طريق التجارة بمثل هذه الأشياء.

خاتمة

إفادة مخصوصة:

تم بحمد الله تأليف مجلد مكة المكرمة من أثرى «مرآة الحرمين» الذى شغلت بتأليفه منذ سنة ١٢٨٩ هـ وعرض للبيع فى السوق كما طبع عقب ذلك مجلد «مرآة المدينة» التى تحتوى على مفاخر مهجر رسول رب العالمين ونشر.

ووفقت كذلك فى عهد السلطان الذى سهل كل شىء فى إنهاء المجلد الثالث من التاريخ المذكور تحت عنوان «مرآة جزيرة العرب»، وطبعته وعرضته على أنظار الباحثين عن الحقائق وأهديته لهم والمنة لله.

وإننى لا أتردد فى ادعاء أن مرآة الحرمين من حيث إحاطته بواقع تواريخ الأقطار الحجازية أنه أكمل التواريخ وأكثرها تفصيلاً. وإن كان بعض المؤرخين من الأسلاف قد كتبوا عدة أجزاء من التواريخ عن أحوال الأقطار الحجازية إلا أن بعض هذه الكتب خاص «بمكة المكرمة» والآخر بالمدينة المنورة كما أنهم فضلوا فى طريقة التعبير وتحرير الوقائع الإيجاز والاختصار لذا لا تجمع هذه الكتب ما تجمعه «مرآه الحرمين» بين صفحاتها من الأسرار والحكم والأخبار الإسلامية والجاهلية.

والتوفيق فى تأليف مرآة الحرمين وطبعها يعود بدون شك لما اتسم به عهد سلطاننا خليفة رسول الله من آيات التوفيق والهداية. وهذا لطف لا ينكر للعبد العاجز.

وهذا مظهر من مظاهر لطف الله الذى سأتباهى وأفتخر به إلى يوم القيامة وقد أنهيت مرآة الحرمين بهذا المقال العربى.

التحدث بالنعمة:

قد أحسن واهب النعم ـ سبحانه وتعالى ـ بإتمام كتابى المنقسم إلى ثلاثة مجلدات والمسمى «مرآة الحرمين» وقرت به من أهل الإخلاص والصفا كل عين، وقد وفق الله فجاء أكمل من أكثر التواريخ التى صنفت بشأن البلدتين المباركتين على أنه نظم ما فى البلدتين من المآثر وذكر ما لها من المفاخر. وجمع ما يحتاج إليه القارئ من أخبار تلك الديار الزكية فى الإسلام والجاهلية، وأتى بفضل الله بغوامض وأسرار تاريخية جليلة حافلة بغرر الفوائد الجميلة ولم يجتمع كل ذلك فى كُتُبٍ أخر وما ذلك إلا بعناية روح سيد البشر وصاحب التاج والمغفور له عليه صلوات الله وأكمل تسليمات الله وبنفحة آله الطاهرين وأصحابه المرضيين وقد ساعد على جمعه وترتيبه وطبعه والانتهاء من تأليفه فى زمن سيدنا ومولانا الخليفة المعظم ظل الله فى العالم، حضرة أمير المؤمنين وناصر كلمة الحق والدين الملك المنصور المعان إمامنا الغازى السلطان عبد الحميد خان نصره الرحمن.

وإنه أيد الله شوكته وصان دولته، نشط الهمم بالتفاته للعلوم وأصحابها والمعارف وأربابها، وتباهت أيامه على الأيام السالفة بوجوده الكريم، وافتخرت على الأعصار الخالية بتموج بحر إحسانه العميم، فعلى هذه التوفيقات الصمدانية، منا فى كل آن، الشكر لله وعلى هذه النعم الجمة الربانية، فى كل طرفة عين الحمد لله.

اللهم إنى أسألك بحرمة القرآن القديم، والذكر الحكيم وبحبك لنبيك الكريم، أن تجعلنا من خاصة أهل التوحيد، واكتبنا فى ديوان عبيدك الذين أطلقتهم من وهدة التقييد، وأثبتنا فى دفاتر الصديقين، واحشرنا مع عبادك الصالحين، تحت لواء نبيك سيد المخلوقين وإمام المرسلين «عليه أفضل الصلوات وأشرف التسليمات» وألزمنا بسلك الفقراء والأولياء الأبطال، ووفقنا للتخلق بأخلاقهم الشريفة فى جميع الأفعال والأقوال، واختم لنا بالصالحات وأمتنا عند ختام الأجل على الإيمان الكامل يا مجيب الدعوات، وصل وسلم على نبيك وسيد رسلك وحبيبك سيدنا ونبينا وشفيعنا محمد ﷺ وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين والحمد لله رب العالمين.

يقول العبد الفقير مؤلفه كان الله له ولوالديه وللمسلمين.

تم تأليف وطبع هذا التاريخ الخصوصى المسمى «مرآة الحرمين» بفضل الله وعونه فى أوائل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثمائة وألف من هجرة النبى الأعظم صاحب العز والشرف.

التقريظ الذى كتبه الشيخ محمد ظافر يجامل به العبد العاجز جامع هذه الحروف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من العدم، وشمله بأنواع اللطف والنعم، والفضل والكرم، علمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، وبعد فقد أطلعت على الكتاب الذى جمع معاهد أرض الحجاز، والتزم فيه مؤلفه «رضى الله عنه» الحقيقة لا المجاز، ووسمه بمرآة الحرمين الشريفين ولا غرو فإنه اسم على مسمى من غير شك ولا تردد وكيف لا وجامعه الهمام الأوحد والأديب الفاضل المفرد، ذو السعادة أيوب صبرى باشا حفظه الله تعالى وبلغه من كل خير ما شاء ووفقه لجميع الخيرات بجاه سيد السادات ﷺ آمين.

كتبه خادم الفقراء محمد «ظافر المدنى» كان الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.